آني إرنو

انظر إلى الأضواء يا حبيبي



ترجمة:
لينا بدر

منشورات الجمل

آني إرنو: انظر إلى الأضواء يا حبيبي، ترجمة: لينا بدر
الطبعة الأولى ٢٠١٧

Annie Ernaux: Regarde les lumières mon amour

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



المخزن الكبير في نهاية الشارع مفتوح دائماً: تنزلق أبوابه الكبيرة طوال النهار في الاتجاه وعكسه، مستقبلة ومودعة سيلاً من البشر. مساحاته المضاءة بالنيون، لا طابع لها وأبدية إلى درجة توحي معها برفاه العيش وبالعجز في الوقت ذاته. في الداخل، يمكنك أن تنسى أنك لست وحيداً أو على العكس، أنك وحيد.

راشيل كوسك، كونتركو،

منشورات أوليفيه ٢٠١٣




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

منذ عشرين سنة، ألفيت نفسي أتسوق داخل مخزن كبير في مدينة كاسوڤي في سلوڤاكيا. كان قد افتُتح منذ عهد قريب وكان الأول من نوعه في المدينة بعد سقوط النظام الشيوعي. لا أعرف إذا كان اسمه «Prior»(*) آتٍ من هنا أيضاً. عند مدخل المخزن، كان هناك موظف يضع في أيدي الزبائن المرتبكين سلة دون استشارتهم. في الوسط، تعتلي فوق منصة بعلو أربعة أمتار على الأقل، امرأة تراقب أفعال وحركات الزبائن الجائلين بين الممرات. كل ما في سلوك أولئك الناس كان يوحي بعدم اعتيادهم على الخدمة الذاتية. كانوا يتوقفون طويلاً أمام البضائع دون أن يلمسوها، أو يعودون أدراجهم حائرين بحذر، مرتابين، سيل من الأجساد يتعذر تمييزها، جاءت تغامر فوق أرض غريبة. كانوا بصدد التعرف إلى المخزن الكبير وأنظمته التي تفرضها الإدارة دون

(*) Prior: معناه أول.

فطنة منها بسلّتها الإلزامية، والسجّانة القابعة في الأعلى. أربكني مشهد الدخول الجماعي هذا، دخول من انجذب إلى النبع، في عالم الاستهلاك.

أذكر أول مرة دخلت فيها إلى مخزن كبير. كان ذلك في العام ١٩٦٠، في إحدى ضواحي لندن، وكان يدعى ببساطة: سوبرماركت. كنت أقيم لدى عائلة استقبلتني في برنامج مبادلة الفتيات. أرسلتني الأمّ إلى هناك مزودة بعربة تسوّق - وهذا مالم يعجبني - مع لائحة طعام كي أشتريها. لا أذكر بالتحديد أفكاري ومشاعري، أعرف فقط أنني أحسست بنوع من التوجس من الذهاب إلى مكان غريب عني بأسلوب عمله وبلغته التي لم أكن أتقنها بعد في الوقت ذاته. بسرعة كبيرة، اعتدت التسكع فيما بعد بصحبة فتاة فرنسية جاءت بالمبادلة هي أيضاً. كنا نشعر بالإغواء والإثارة من تنوع ألبان الزبادي - إرضاءً لمن يعاني قلة الشهية على الطعام - والعديد من الحلويات - إرضاءً للشرهين - وهذا ما أتاح لنا آنذاك الحرية لالتهام محتوى علب السمارتي من حبوب الشوكولاتة داخل المخزن دون أن تمرّ على الصندوق.

تختار ذاكرتنا الأشياء والأماكن، أو بالأحرى، رياح الزمن هي التي تقرر ما يستحق أن نتذكره. يشارك في تشكيل هذه الذاكرة كل من الكتّاب والفنانين والسينمائيين. يرتاد المخازن

الكبرى غالبية الناس خمسين مرة في العام تقريباً. منذ أربعين سنة فقط، بدأت تظهر في فرنسا كمكان لائق. إذ إنني حين أنظر ورائي، أدرك أن في كل مرحلة من حياتي، كان هناك صور لمخازن تجارية واسعة تجمع بين المشاهد واللقاءات والناس.

أتذكر منها:

كارفور، شارع جنيف في مدينة آنسي، عندما ملأنا، ذات يوم من شهر مايو في العام ١٩٦٨، عربة تسوق إلى حافتها - لم تكن عربات كادي «caddie»(*) قد انتشرت بعد - لأننا كنا خائفين من نقص في المؤن.

مخزن أنترمارشيه(**) في لاشارتيه سورلوار البعيد عن المدينة، بلافتته «فرسان التوزيع»، الذي كان يعدّ مكافأة الأولاد في الصيف بعد زيارة القلعة والكنيسة، مثلما كانوا يفعلون بعد المدرسة بمرورهم على مخزن لوكليرك أوسني. في هذا المخزن بالذات، صادفت فيما بعد تلاميذ لم أتعرف إليهم فوراً، وفاضت عيناي بالدموع وأنا أفكر أنني لن أشتري منه بعد الآن الشوكولاتة لأمي التي ماتت منذ عهد قريب.

(*) Caddie : عربة تسوق تحمل اسم العلامة التجارية بحيث صار يطلق على اسم العربة.

(**) أنترمارشيه: سلسلة مخازن كبرى في فرنسا.

مخزن ماجور، عند سفح الصخرة في سانسير(*). مخزن كونتينان فوق مرتفعات روين بالقرب من الجامعة، سوبر.م في سيرجي، لافتات زاد اختفاؤها من كآبة العمر.

ماموث دوارتزوم الذي لم نذهب إليه قط على الرغم من رغبتنا في شراء مؤننا من نقانق الكوريزو وحلوى التورون من الحدود، ـ لكن الوقت كان متأخراً دائماً ـ وصار اسم المخزن نكتة عائلية كرمز للوقت غير المناسب وبعد المسافة.

لا يقتصر ارتياد المخازن الكبرى على كونها مكاناً للتدبير المنزلي ومشقة التبضع فقط، إنها تحفّز الأفكار وترسّخ الذكريات والمشاعر والانفعالات. بالتأكيد نستطيع كتابة قصص من الحياة من خلال المتاجر الكبرى الشاسعة التي نرتادها، فهي تشكّل جزءاً من مشهد الطفولة لكل الذين تقل أعمارهم عن الخمسين. إذا استثنينا فئة محدودة من السكان ـ أهالي وسط باريس والمدن القديمة ـ، المخزن الكبير بالنسبة لكل الناس مكان أليف يتداخل استخدامه مع الحياة، غير أننا لا نقدّر أهميته على أساس علاقتنا بالآخرين وطريقتنا في «صنع المجتمع» مع معاصرينا في القرن الحادي والعشرين. إذا ما فكرنا فيه، فلا مكان يضاهيه، عام أو خاص، يجول فيه ويتخالط هذا الكمّ من الأشخاص المختلفين: في السن

(*) سانسير: بلدة صغيرة في مقاطعة ڤال دولوار.

والمداخيل والثقافة والأصل الجغرافي والعرقي والمظهر. ما من مكان مغلق أكثر من المخزن الكبير يجد المرء نفسه ولعشرات المرات في حضور أمثاله ويحظى بفرصة أكبر لتكوين فكرة عن سلوك الآخرين وحياتهم. إن رجال ونساء السياسة، الصحافيين و«الخبراء»، كل أولئك الذين لم يطؤوا أرض المخازن الكبرى قط، لا يعرفون شيئاً عن الواقع الاجتماعي لفرنسا اليوم.

المخزن الكبير كموعد هام للّقاء بالبشر، كاستعراض مسرحي، أحسست بذلك تكراراً. في المرة الأولى بشكل حادّ، رافقه شعور غامض بالخجل. انعزلت كي أكتب في قرية بمقاطعة نياڤر، خارج الموسم السياحي، لكنني لم أفلح في الكتابة. كان الذهاب إلى مخزن «لوكليرك» على مسافة خمسة كيلومترات بمثابة ترويح عن النفس. عندما خالطت هناك الغرباء وشاهدت الناس، التقيت بهم مجدداً بكل بساطة، اكتشفت أنني شبيهة بكل أولئك الذين يأتون للقيام بجولة في المركز التجاري للترفيه عن أنفسهم أو للهروب من وحدتهم. بكل عفوية، شرعت أصف الأشياء التي أراها في الأماكن العامة(*).

(*) الأماكن العامة: كتبت آني إرنو كتابين: «Journal du dehors» و«La vie exterieure» عن الحياة في الخارج إصدار دار غاليمار، روت فيهما عن=

كي «أحكي عن الحياة»، حياتنا اليوم، اخترت دون تردد المخازن الكبرى كمادة للوصف إذاً. بالذهاب إليها، وجدت فرصة للتحقق من السلوك الواقعي. بعيداً عن المقالات المتفق عليها التي تتسم في أغلب الأحيان بالنفور الذي كانت تثيره في نفسي هذه الأماكن التافهة المزعومة والتي لا تناسب خبرتي بشيء.

من شهر تشرين الثاني (نوڤمبر) ٢٠١٢، وحتى تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٣، حكيت عن معظم زياراتي إلى المخزن الكبير AUCHAN، «أوشان» في سيرجي(*)، ذاك المخزن الذي أذهب إليه عادة للسهولة والمتعة، ويعود السبب الأساسي إلى موقعه داخل منطقة تروافونتين، «الينابيع الثلاثة»، أكبر مركز تجاري في ڤال دواز. يمكن بلوغ المخزن عبر ممرات المشاة من محطة القطارات الكهربائية، أو بالسيارة مباشرة من الطريق السريع أ١٥. أنشئ مركز الينابيع الثلاثة وسط حيّ المحافظة في سيرجي، حيث تتمركز كل المؤسسات العامة: مقر المحافظة، مكتب البريد، مكتب صندوق المساعدات الفرنسي، دائرة الضريبة، محطتا شبكتي

=مشاهداتها لكل ما تصادفه في الأماكن العامة، معتبرة أن هذه اللقاءات الخاطفة جزء من الحياة المعاصرة الجديرة بالوصف.

(*) سيرجي: مدينة صغيرة في مقاطعة ڤال دواز.

خطوط القطارات والطرق، مصرف التوفير، مركز الشرطة، المسرح، المركز الإعلامي، معهد الفنون، بركة السباحة، حلبة التزلج، إلخ...، وعدد من مدارس التعليم العالي (كلية الآداب، مدرسة العلوم الاقتصادية والتجارية، المدرسة الوطنية للإلكترونيات وتطبيقاتها، مدرسة الفنون الوطنية)، بالإضافة إلى المصارف، بحيث يمكنني وبكل سرور إعطاء تعريف إلى هذا المكان ـ الذي يدعى فضلاً عن ذلك المركز الكبير ـ وأقول: إنه إضافة، لا بل تشابك، مركز تجمع ضخم، يخلق نشاطاً هائلاً في النهار ومكاناً مهجوراً في الليل.

يشغل المركز التجاري أكبر مساحة من المنطقة. يجدر بالقارئ تصوّر قلعة ضخمة مستطيلة الشكل، مبنية من الآجر البنيّ المحمرّ، واجهتها الكبرى، تلك التي تقع على الطريق السريع، من الزجاج العاكس للغيوم كالمرايا. الواجهة الخلفية التي تطل على مبان وبرج سكني، على النسق نفسه من الآجر، شبيهة بمصنع قديم من مصانع الشمال. منذ إنشاء المركز في العام ١٩٧٢، أضيف إليه جناح يتعامد معه عند أحد طرفيه، حيث يقع مخزن الـ FNAC المختص بتوزيع كل ما يتعلق بالثقافة. تحيط بالمركز من ثلاثة جوانب مواقف سيارات واسعة، نصفها مسقوف ويقع في ثلاثة مستويات. يمكن الوصول إلى الداخل عبر عشر بوابات، بعضها هائل

الحجم يذكّر بمدخل معبد نصفه إغريقي ونصفه آسيوي، بأعمدته الأربعة التي ترتفع فوقها أقواس متباعدة، أعلاها من الزجاج والمعدن النافر إلى الأمام على نحو جميل.

يشكّل مركز الينابيع الثلاثة مركز مدينة من نوع جديد: ملكية لمجموعة خاصة. مغلق كلياً، ومراقب، لا يمكن لأحد اختراقه خارج الأوقات المحدّدة. في وقت متأخر من المساء، وعند الخروج من محطة المترو ورؤية كتلته الساكنة، يبدو المرور بالقرب منه أكثر كآبة من المرور بالقرب من مقبرة.

تجتمع هنا، وعلى ثلاثة مستويات، كل المتاجر وخدمات الدفع الضرورية لتغطية مجمل حاجات السكان: سوبرماركت، محلات أزياء، مزينو شعر، مركز طبي وصيدليات، حضانة، مطاعم وجبات سريعة، دكاكين لبيع التبغ والصحف والمجلات، إلخ... ثمة دورات مياه مجانية، وإعارة لكراسي متنقلة. أما المقهى الوحيد «Le Troquet»، وسينما «Triton»، ومكتبة «زمن العيش»، فقد اختفوا عن المشهد. لافتات الماركات الراقية قليلة جداً، إذ إن غالبية الزبائن هم من الطبقة الوسطى والشعبية.

بالنسبة لمن ليس معتاداً، يبقى المكان مضللاً، ليس على شكل متاهة فينيسيا، إنما بسبب الشكل الهندسي للمكان،

حيث تتجاور على كل جانب من جوانب الممرات ذات الزوايا المستقيمة، متاجر يسهل الخلط بينها. إنه دوار التناظر الذي يعززه انغلاق المكان، حتى وإن كان مفتوحاً على ضوء النهار بواجهة زجاجية واسعة تحلّ محل السقف.

يشغل مخزن أوشان، وعلى مستويين، نصف مساحة المركز التجاري تقريباً. هو منها قلبها، يغذّي من زبائنه مجمل المتاجر الأخرى. يمكن ملاحظة تفوّقه من ارتقاء لافتته في مقدمة المركز التجاري، حيث تنفرد بأحرف عملاقة، حاجبة لافتات الـ FNAC و DARTY الأقل حجماً. في مواقف السيارات، تحمل اللافتات كلها الشعار نفسه، حمراء عليها طير. أوشان هو المتجر الوحيد الذي يفتح لوقت طويل، من الثامنة والنصف صباحاً ولغاية العاشرة ليلاً، في حين لا يفتح الآخرون سوى من العاشرة صباحاً ولغاية الثامنة مساء.

يشكل مخزن أوشان داخل المركز مبنى مستقلاً قائماً بذاته، يعرض، بالإضافة إلى الأغذية، أدوات كهربائية منزلية، ملابس، كتب وصحف، ويقدم خدمات أخرى أيضاً: مراكز قطع تذاكر، مكاتب سفر، محلات تصوير، إلخ... متفوقاً بطريقة ما على عروض المتاجر الأخرى مثل Darty، الذي دُفع به خارجاً لفقدان المواد من محلاته

كالخبز أو اللحوم أو المشروبات الكحولية. الطابق الأول، الخالي من الأغذية، له شكل مستطيل طويل متصل بمصعد بالطابق الثاني ذي المساحة المضاعفة، والمقسوم إلى قسمين متعامدين ومتصلين. مما يخفف الإحساس بحجمه فيما لو تفادينا النظر إلى خط البضائع اللامتناهي. كل المداخل فيه محروسة.

هأنذا، في سبيل وصف المكان وبحسب عادتي، رحت أطوف، ولائحة المشتريات في يدي، باذلة قصارى جهدي للانتباه أكثر من المعتاد على كل من يشغل هذا الحيّز، موظفون وزبائن، وعلى فن الاستراتيجية التجارية، ما أكتبه ليس بحثاً استطلاعياً، ولا تحرّياً منهجياً إذاً، إنما يوميات، ما ينسجم على الأكثر مع مزاجي الذي يميل إلى الالتقاط الانطباعي للأشياء والناس، وللأجواء، كتابة حرة في إبداء الملاحظات والمشاعر، محاولة مني للإمساك بشيء ما من الحياة الدائرة هناك.

الخميس في ٨ تشرين الأول أكتوبر ٢٠١٢.

الطقس بارد وغائم. انتابني شعور يشبه الفرح منذ قليل عندما فكرت في الذهاب إلى تروافونتين للقيام ببعض المشتريات الضرورية في أوشان، مثل هروب من عمل الكتابة، ترفيه دون عناء، في مكان أليف.

بمجرد اجتياز إحدى الحواجز التي تفضي إلى مواقف السيارات (المدفوعة)، تعترضك على الفور سلسلة من الأشراك التي تجعل من عملية التسوق عملاً مغيظاً: أن تُجبر على الدوران مطولاً قبل أن تجد مكاناً لا يقع في آخر الموقف بعيداً عن المدخل، أو أن تنتبه أنك لا تحمل قطعة نقد يورو معدنية لتفكّ عربة caddie، أو حتى أكثر من ذلك، أن تسحب على نحو لا يمكن الرجوع عنه عربة تحوي زبالة من استخدمها قبلك. وعلى العكس، عندما تعثر في الحال على مكان شاغر أو سيكون شاغراً فوراً وقريباً من المدخل المفضّل لديك، مما يمنحك شعوراً بالرضى يبشّر بالخير، مثلما يحدث حين تنزع عربة نظيفة وسهلة التحريك أيضاً. اليوم تحقق الشرطان، إنه يوم سعدي.

زحام شديد في ممرات المركز - إنها عطلة عيد جميع

القديسين ـ، زحام هادئ أكثر من داخل مخزن أوشان. بما أن عيد هالوين قد مرّ، حلّ كل شيء مكانه من أجل عيد الميلاد إذاً. أرى عند المدخل، سقالة ضخمة، عليها زجاجات مزينة: **زجاجة شامبانيا دون ماركة بـ١٦,٣١ يورو، مع بطاقة أوشان (حسم ٢٠٪)**. علب شوكولا، زينة طاولة، شجرة عيد الميلاد. على مدّ النظر، لوحات إعلان باللون الأصفر كتب عليها بالأسود العريض: PROMO (تنزيلات). غير أن قلة من الناس كانوا في هذا الطابق، وكأنهم يقاومون الزمن التجاري. لا شك أنهم ينتظرون الوقت المناسب لهم، أو على الأرجح، رواتبهم في آخر الشهر.

تشغل الألعاب عدة أقسام وهي مفصولة على نحو صارم: «صبيان»، و«بنات». تجد في القسم الأول من المآثر: سبايدرمان، وما هو صاخب وعنيف: سيارات وطائرات ودبابات ورجال آليين وكرات للتدريب على الملاكمة، وكلها تميل إلى ألوان الأحمر والأخضر والأصفر الفاقع. في القسم الثاني، تجد كل ما له علاقة بالداخل وأعمال المنزل والتزين ودمى الأطفال: «بقاليتي الصغيرة»، «مكواتي الصغيرة»، «ممرضة الأطفال الصغيرة»، «كيس طعام» شفاف مملوء على نحو قبيح بما هو بين البراز والقيء (كرواسانات وأطعمة أخرى من البلاستيك). رؤية أدوات طبيب بين هذه الترسانة أراحني بعض الشيء. إن استنساخ دور الأم لم يعِق الدقة

والخيال: كل شيء هنا شبيه بأم صغيرة. مقابل هذه، محافظ الماكياج الملونة الجميلة، مرآة زينة مع كرسيها، ثياب بياض الثلج والأميرات. أبعد قليلاً، وعلى امتداد عشرة أمتار، دمى من الأعلى إلى الأسفل. إعلان لدمية باربي تقود سيارة فولسفاكن بـ ٢٩,٩٠ يورو. أنفعل غاضبة من الشعور بالعجز. أفكر بحركة «FEMEN»(*)، يجدر بهن المجيء إلى هنا، إلى المنبع الذي يشكّل لاوعينا، كي يدمروا كامل هذه السلع الموجّهة للتفكير. سوف أكون بينهن...

إلى البعيد قليلاً، حيّز المكتبة، ثمة زبونة ـ سيدة كهلة ـ تتمشّى بين الطاولات. في كل مرة أغامر فيها بالذهاب إلى هناك، أعود وأخرج حزينة ومحبطة. ليس لأن كتبي غائبة عن المكتبة ـ بعضها موجود هناك ـ في قسم «poshe»، هناك بعض الاستثناءات، إذ يخضع الخيار المقترح لمعيار وحيد، «الأكثر مبيعاً». تُعرض تلك الكتب على مسافة ثلاثة أمتار، مرقمة من واحد إلى عشرة بأرقام كبيرة، مثلما توضع في سباق الخيل في لونغ شان. ما يمكن أن نشير إليه بكلمة أدب لا يشغل سوى حصة صغيرة من هذا الحيّز المخصص للمؤلفات العملية، والألعاب، والرحلات، والدين، وغيرها.

(*) FEMEN: حركة أسست في أوكرانيا في العام ٢٠٠٨ للدفاع عن حقوق المرأة وصارت معروفة بمظاهرات نسائها العاريات الصدر يكتبن شعاراتهن عليه.

ألمح لافتة صغيرة في مكان عالٍ:

احتراماً لزبائننا الكرام، تمنع قراءة المجلات والصحف في المتجر. شكراً لتفهمكم.

أكثر ما يغيظني في هذا المنع، هي كلمة «زبائننا» بدلاً من «الزبائن» التي نتوقعها. لا أنا ولا الآخرين، نحن لسنا ملكية لأوشان، ولا لشركائهم أيضاً، زبائنه ليسوا ملكاً لي ولا ملك لنا، «نا» الملكية هذه عبارة عن عملة مزيّفة كالعادة.

في الأعلى، في طابق الأغذية، هناك الكثير من الناس، أجواء العطلة المدرسية جليّة جداً. تجد أناساً يتنزهون وآخرين لامبالين. الكثير منهم ليس معه عربة أو سلّة. يجول المراهقون في الممر الرئيسي المتعامد مع صفوف الأقسام، يتسكعون ويدورون بين عربات الأزواج المسنين، يحيط بالنساء أولاد يتسلون بالركض، يروحون ويجيئون. ثمة فتاة ترفع سماعات هاتفها الخليوي كي تردّ على أمها. وأخرى في قسم المياه المعدنية، في آخر المخزن، تتحدث بالهاتف ورأسها مسند إلى صندوق مياه إيفيان(*)، «هل حصلت على تصريح بالتقاط الصور أو لا؟» يمكن للمرء أن يقف داخل المتجر الكبير منعزلاً ويبدأ محادثة كأنه في حديقة.

(*) إيفيان: ماركة تجارية لمياه معدنية شهيرة.

تقود آلة تنظيف الأرضيات امرأة شقراء في الخمسين، ترتدي اللباس الأزرق الموحّد، تشقّ لنفسها ممراً وسط الناس. هذه الوظيفة الحسّاسة، بجانبها الوقور ـ تطلّ الموظفة على الزبائن من كرسيها العالي ـ تبدو لي أكثر قيمة من عمل الموظف المنقول ـ ربما باطلاً ـ إلى قسم ترتيب البضائع.

الموظفون الآخرون ـ بائعون، مسؤولو أقسام، مختصون بنقل وتفريغ رزم البضائع، إلخ ـ الذين يتنقلون داخل المتجر بلباسهم الموحد نفسه ـ يلبسون سترة سوداء من دون أكمام، على طراز Mao(*) على نحو ملتبس، وعليها كلمة AUCHAN بالأحرف البيضاء الكبيرة.

أرى أحد أولئك الموظفين يتحدث دون تكلّف مع زبون آسيوي لا يوجد في عربته سوى أربعة أكياس من الرز العادي. أدركت أنني لا أعرف أحداً من العاملين هنا.

رفضت حتى الآن وعلى الدوام الحصول على بطاقة [زبائن أوشان]، أي الزبائن المخلصين للمتجر. على الصندوق، وعند السؤال التقليدي: «هل لديك بطاقة الزبون الوفي»، أجيب وبشكل تقليدي أيضاً: «لست وفية لأحد»، مما يبدو كحالة من المغالاة العنيدة. لا أريد ببساطة الخضوع

(*) طراز Mao: ملابس مستوحاة من الصين الشعبية زمن ماو تسي تونغ.

لاستراتيجية الإغراء الاستهلاكية التي تمارسها كل المراكز التجارية الكبرى. اليوم أجبت: «ما السبيل للحصول على واحدة؟» بشيء من الفضول لمعرفة أية معلومات سأكون ملزمة بإعطائها عني. لدهشتي الكبرى، لم يطلبوا أية معلومة. تلقيت على الفور من يد أمين الصندوق بطاقة مكتوب عليها AUCHAN، وعلى خلفيتها code-barres. ليس هناك أسرع وأدهى منهم ليجعلوك معلقاً بعلامتهم التجارية، عن طريق نظام «الحصّالة» التي تجمع فيها يوروهاتك المكتسبة بالخضوع لتعليماتهم بشراء هذه السلعة أو تلك.

الإثنين في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر).

الوقت: بعد الظهر، المكان: مدخل أوشان، في سبيل مشترياتي القليلة. لم آخذ سوى سلة من البلاستيك الأحمر لها دواليب، عميقة، وسهلة الحركة.

مررت من أمام بسطة السمك الفارغة تقريباً. رائحة نفّاذة، لا يمكن تلافيها، على الرغم من الزجاج، وذلك بسبب الحرارة السائدة في مجمل المخزن. على يمين البسطة، أرى تلك الطبقة الرائعة من سمك القادس المملح، تتراكب فوق بعضها البعض مثل سطح قرميدي قديم مائل. على الأرض، ثمة صناديق مغلقة، تتكوم فيها أسماك: ٦٥ يورو كل ١٠كغ. تصل سيدة سوداء بثوب طويل مزهّر، تقف أمامها بتردد، ثم ترحل.

(ورطة)، هل سأكتب «امرأة سوداء»، أم «امرأة أفريقية» - لست متأكدة من أنها أفريقية - أو أكتب «امرأة» فحسب؟ أجد نفسي، على نحو غريب، أمام خيار سوف يرتبط بقراءة هذه اليوميات. أن أكتب «امرأة» فقط، فهذا دليل على أنني أمحو سمة جسمانية لا يمكن عدم ملاحظتها فوراً. معنى ذلك باختصار، «تبييض» هذه المرأة ضمنياً، ذلك لأن القارئ

الأبيض سوف يتخيل، تبعاً للعادة، امرأة بيضاء، أي أنني أرفض شيئاً من شخصها وهو ليس بالشيء القليل، بشرتها، أي أن أرفض كونها مرئية بوضوح. على العكس تماماً، ما أريد القيام به، هو التزامي بالكتابة: أي أن أمنح الناس، هنا في هذه اليوميات، الحضور نفسه والمكان نفسه اللذين يشغلونهما في يوميات هذا المخزن الكبير. أنا لا أكتب بياناً لصالح التنوع العرقي، أريد فقط أن أعطي إلى أولئك الذين يترددون إلى المكان نفسه مثلي، الوجود وإمكانية رؤيتهم بما لهم الحق فيه. سوف أكتب إذاً: «امرأة سوداء»، و«رجل آسيوي»، و«مراهق عربي»، كما يطيب لي.

فاكهة وخضار. جزيرة صغيرة من عنب إيطاليا غير المعبأ. أناس كثر يتناولون منه حبة أو حبتين ويأكلونها بين الحذر واللامبالاة، بنوع من الإذن الجماعي والمحدود ذاتياً بحدود بضع حبات، تحيط بهم أنظار الآخرين. القيام بالشيء نفسه مع التفاح والإجاص يتجاوز حدود هذا الحق المضمر. أنا مع التفاح بالتحديد. ثمة موظف يرفع التفاح من الصناديق. سألته إذا كان هناك تفاح كندي، إذ إن القليل المتبقي كان في حالة سيئة.

«سوف أضع واحداً خصيصاً من أجلك!» ووضع أمامي صندوقاً مليئاً.

«هل هي من أجل حلوى التارت؟ أنا أطبخها في الفرن، الفرن أفضل».

«أنا أطبخها في المايكروويف، عشر دقائق كافية».

علّمني استخدام الميزان الإلكتروني الجديد. إنه ثرثار. أنا مسنة جداً، وهو في عز الشباب، على تبادل حديث آخر غير المجاملات. أردت أن أسأله عن مرتبه الشهري، لم أجرؤ. لم أفلح بالخروج من حالتي كزبونة.

فجأة ظهر ذلك الرجل الذي يمشي بخطا واسعة في ممر عريض وهو يترنح قليلاً، بيده علبة ريدبول كان قد باشر شربها. ليس معه شيء آخر، لا سلّة، ولا عربة. اليد الأخرى في الجيب الخلفي لبنطاله الجينز المنسدل تحت خصره. يغطي رأسه قلنسوة. بدأت أخاف عليه من كاميرات المراقبة، ـ لم تكشفه بعد من مكامنها ـ ومن الحرس. سنة تلو الأخرى، أصبح السكان الذين يرتادون أوشان أكثر تنوعا للأعراق، في حين اختفى عن الحضور المشرّد، الثمل إلى حد ما. فرض نفسه ذلك الأخير كنوع من «الزبون العادي»، إما بسبب صدّ الحراس عند المداخل، أو بسبب الإبعاد الذاتي.

أنتظر عند الصندوق الآلي وراء رجل يربط شعره كذيل حصان، معطفه جلدي أسود طويل، حذاؤه شبيه بالحذاء

العسكري. هذا الصندوق مخصص لمن يشترى أقل من عشر سلع، يستخدمه عادة الشباب، وقلة من الناس الذين تجاوزوا الخمسين. أشك في أن استخدامه بالنسبة إلى الكثيرين يبدو معقداً، حتى ولو كانت هناك موظفة على بعد أمتار قليلة تهرع لتقديم المساعدة. ها قد أخليت إحدى الآلات. مرة أخرى، أستغرق وقتاً طويلاً في تفريغ مشترياتي باليد. في اللحظة التي بدأت بترتيبها داخل كيس بلاستيكي (مدفوع ٣سنتيم)، لاحظت أن كيساً آخر كان قد علق به، لم تحصِه الآلة. غششت عن غير قصد. أتساءل بعد برهة فيما إذا كان الصندوق الآلي قادراً على كشف تسعيرة استبدلت بأخرى، أم هو نظام عبقري مختلف تماماً. هذا النوع من التسهيلات يدفع بالمرء إلى اللامبالاة الأخلاقية، فهو لا يشعر أنه يسرق أمام آلة.

الجمعة في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر).

الخامسة بعد الظهر. أتجه نحو صيدلية أوشان الواقعة داخل المتجر الكبير. هي ليست بعيدة عن مستحضرات النظافة والتجميل، غير أنها مستقلة، لها صندوقها الخاص وبائعة جديرة بإعطاء النصائح والإرشاد. يجبر ضيق الممرات فيها على ترك عربة التسوق عند المدخل. إعلان: ـ **الجمعة، ٣٠٪ حسم على سلع مطابقة للأصل**. بسبب سيل غير متوقع من الزبائن، ـ زبونات على الأخص، نادراً من الرجال ـ، كان هناك بائعة إضافية، واثقة من نفسها، متوترة، «أعلى رتبة من البائعة الاعتيادية» (يمكن قراءة منصب النفوذ من الوجه والحركات). زمرة من الفتيات، بيضاوات وسمراوات، بينهن أم يافعة مع عربة طفل، يتزاحمن أمام قسم الماكياج، يتهامسن بحيوية ورؤوسهن متقاربة. بينهن سيدة أوراسية ليست صغيرة في السن محتارة أمام أغذية الحمية، انتهى بها المطاف إلى أخذ مجموعتين من رزم بسكويت عليها تنزيلات.

محل المستحضرات الصيدلانية ـ مثل بعض أقسام العضوية BIO ـ يجذب طوابير طويلة. يبدأ الناس بالتأمل أمام

مستحضرات استعادة القوام والهضم السليم والنوم، ليكونوا بصحة جيدة والعيش بشكل أفضل. إنها أقسام الحلم والرغبة والرجاء، أقسام العلاج النفسي بشكل من الأشكال، قسم أفضل المنتجات، هذا قبل أن تنتهي في عربة التسوق.

دون أن تكون لدي النية بالشراء، تمارس عليّ الألعاب قوة إغراء لا تقاوم. ربما هو الإغراء نفسه الذي دفع بثلاثة شبان في العشرين إلى التسكع في القسم ذاته. مثل كلاب شمّت رائحة طريدة، توقفوا أمام الأقنعة.

لامس أحدهم الغطاء البلاستيكي الشفاف لقناع تنكر رجل آلي، وبدأوا يستعيدون ذكرياتهم بحماس، ـ كان عندي واحد مثله! ـ ، بدوا سعداء، طفوليين على نحو ظريف.

تعبر ببطء بين الدمى سيدة يافعة. الفتاة الصغيرة ما بين السادسة والثامنة من العمر تطالب بواحدة من الدمى لا أعرف ما هي. تجرّها أمها قائلة: «تعالي، ستحصلين على واحدة من بابا نويل الأخضر». بابا نويل الأخضر، هو ذلك المختص بالمساعدات الشعبية ويوزع ألعاباً لأولاد الأهالي الفقراء.

ثمة طابور عند بسطة السمك: علامة الاندماج مع التقليد المسيحي المعمّم. في الحقيقة، إن الإيمان الوحيد الذي يدفع بالناس إلى شراء السمك يوم الجمعة، هو الإيمان بأنه طازج أكثر من الأيام الأخرى.

ليس بعيداً، فوق صواني اللحوم المقطعة حديثاً، مجموعة من اللافتات الموزعة: **لحوم بأقل من ١ يورو، العروض أقل كلفة في أوشان، لحمة بـ ١ يورو للشخص.**

أسلوب إغواء إنساني. المخزن يحسب حصة الفرد من اللحم في الطبق. ولكن ما وزنها؟ غير وارد. لا شك أنها حسبت بكمية صغيرة.

على المستوى نفسه لصفوف «منتجات عالمية»، الذي يليه أقسام «الحلال» و«الكوشر»(*)، هناك زاوية لا يتسكع فيها أحد أبداً، نوع من بقالية كبيرة بأسعار زهيدة على نموذج مصغر. مع عناوين متكلفة، «كهف الزيت»، «كهف المعجنات»، الـ ٣٣ سنتيليتر من زيت الزيتون بسعر ١٤يورو. وكل شيء على غراره، باهظ الثمن، توابل، بسكويت، معلبات... مستودع المؤن الخالي دائماً هكذا، هل هو جزء من متجر أوشان؟ شاهدت هناك ذات مرة، تحت قسم المربيات، فأرة صغيرة جميلة. يسهل على القوارض الإفلات من كاميرات المراقبة أكثر منا بالتأكيد.

بما أن عدد الفقراء أكبر بكثير من فاحشي الثراء، كان الحيّز الذي يشغل الحسم الكبير أكبر بخمس مرات. حتى

(*) «الحلال» و«الكوشر»: كلمات توضع في قسم الأغذية: الحلال من أجل المسلمين، كوشر من أجل اليهود. وذلك تبعا لتقاليد أتباع الديانتين.

العام ٢٠٠٧، كان يقع قريباً من قسم العضويات bio، الذي كان صغيراً جداً آنذاك، عند تقاطع جناحين في الطابق الثاني، وإن كان الناس يجتازونه للذهاب من قسم إلى آخر.

لاشك أن الإدارة ارتأت أن توسيع ومضاعفة أقسام الأغذية العضوية الباهظة الثمن، في ذلك المكان الاستراتيجي يدرّ المزيد من الربح، لذلك نقلته إلى آخر المتجر، في الطابق نفسه، داخل منطقة محصورة يتشارك فيها مع منتجات من أجل الحيوانات. مما يجعله مرئياً أقل من قبل عندما كان وسط المخزن. إذا لم يكن لديك كلب أو قط، يمكن أن تجهل وجوده كلياً. إنه مكان التموّن للـ«طعام الرخيص»، كلمة توماس بيرنهارد(*)، وكل شيء فيه يعني هذه الكلمة. بقدر ما هي أغذية القطط والكلاب معروضة بأغلفتها الملونة بشكل شهيّ ومبهج، على عكس تشكيلة الأغذية البشرية بالقرب منها الأقل جاذبية، إذ تتكوّم فوق ألواح خشبية على الأرض أو في أقفاص داخل خزائن. حتى الجوارير المبرّدة، لها مظهر رديء. كل شيء بكميات كبيرة، البيض بـ ٣٠ يورو، الخبز بالشوكولا من ١,٨٩ يورو إلى ١٤ يورو الرزمة. ليس هناك ماركات ـ المحتوى بكميات ضخمة

(*) توماس بيرنهارد: كاتب مسرحي وشاعر نمساوي في سيرة حياته أكثر من فضيحة بسبب نقده الجارح.

فحسب ـ «ملفوف بروكسيل»، «قوالب المعجنات»، «كيك بالشوكولا» أو ماركات من أي مكان، «قهوة نخب أول»، «يخنة لاروش»، «الزيت الجميل»، ماركات متباهية بنوعية منتجات عديمة النوعية.

في المقابل، هناك قسم كبير: «الحسم الذاتي»، الذي يعرض داخل جوارير كل أنواع السكاكر والبسكويت الفاتحة للشهية التي تُحشر داخل كيس وتُزان فيما بعد فوق ميزان.

هنا، حلّ التهديد الصريح محل أسلوب الإغراء الاعتيادي بالترحاب المزيّف والوعد بالسعادة. على طول قسم الحسم الذاتي، في الأسفل، هناك لافتة تنبيه باللون الأحمر:

الاستهلاك ممنوع في المكان

وأخرى في الأعلى، أكثر لطفاً:

الاستهلاك ممنوع في المكان. شكراً لتفهمكم.

الحياة، الحياة الحقيقية، في أوشان.

فوق الميزان، لافتة يبرز فيها إغواء الخداع في المقدمة: «زبائننا الأعزاء، نعلمكم أن وزن واسم مشترياتكم مراقبان بشكل احتمالي على الصندوق». تحذير مخصص للسكان المفترض أنهم خطيرون، تحذير لا تجده فوق موازين أقسام الفاكهة والخضار العادية في المخزن.

ظهرت امرأة معها صبي صغير أصهب وقربها عربة طفل،

بدا مسرعاً نحو قسم السكاكر، «سامي! سامي!» صرخت الأم. كان سامي قد أزلق يده في أحد الجوارير وأحضر لها ظافراً حفنة من السكاكر. ابتسمتُ للمشهد. أما الأم فلم تفعل، كانت تتجنب النظر إليّ.

عند الصندوق، جدل بين جدّة وحفيدتها التي تبلغ نحو ستة أو ثمانية أعوام.

«تريدين كيكي أم العطر؟ ماذا تفضلين؟ ـ العطر في السلة منذ الآن على ما يبدو ـ لا يمكن الحصول على كل شيء في الحياة. هل تظنين أن جدتك لديها كل ما تريد؟ وأنت الشيء نفسه أيضاً».

«أريد كيكي».

رفعت الجدّة العطر من السلة، ـ ماركة والت ديزني ـ، وضعته فوق كومة من السكاكر بالقرب منها بينما راحت الفتاة الصغيرة لتحضر كيكي. عادت تعانقه بيدها بقوة. كيكي قرد صغير. استعادت الجدّة خلسة بحركة خاطفة زجاجة العطر وألقت بها داخل السلة، دون أن تنبس ببنت شفة، بهيئة غير راضية. تعرف أنها مخطئة بتصرفها هذا. لم تستطع منع نفسها من القيام بذلك، فهي ترغب في إسعاد حفيدتها وكسب محبتها. في عالم المخازن الكبرى والاقتصاد الحر، أن تحب الأولاد معناه أن تشتري لهم أكبر كمّ ممكن من الأشياء.

الثلاثاء في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر).

لوقت طويل، كنت أجهل أن أوشان ينتمي لعائلة «ليه موليه»، التي تمتلك أيضاً Leroy Merlin, Kiloutou, Decathlon, Midas, Flunch, Jules، إلخ. استناداً إلى عدد الناس الذين جاؤوا إلى هنا اليوم، أتصور أن قلة منهم تعرف ذلك. أتساءل ما الذي تغيّر من جراء معرفتي بذلك. إنها خيالات. كائنات أسطورية. في مدينة آنسي، كانت تسري إشاعة في الماضي أن عائلة فورنيه ـ العائلة التي أنشأت أول مخزن كارفور في المدينة ـ تأكل في صحون من ذهب.

السبت في ٢٤تشرين الثاني (نوفمبر).

وصلت في بداية فترة بعد الظهيرة إلى تروا فونتين. ازدحام في موقف السيارات. صُدمت من المدخل بالناس المختلفين عن الأيام الأخرى، هناك الكثير من الأزواج والعائلات، أغلبهم مع أولاد صغار، ومزيد من النساء اللواتي يغطين شعرهن بمنديل. جوّ فوّار وجليّ من الهيجان والتبذير ـ أو الرغبة في التبذير ـ، هيجان تخف سرعته بسبب عدد الزبائن. شيء يشبه التموّن الأسبوعي الكبير. تفيض عربات التسوّق بالمؤن، «سحر عيد الميلاد» منتشر في كل مكان. أكاليل تنزل كالمطر الفضيّ فوق المصاعد والفتحات. ما من فترة يشبه فيها المركز التجاري كاتدرائية إلى هذا الحد أكثر من هذه الفترة.

عند مدخل أوشان، سيدات شعورهن بيضاء، يوزعن، على طراز التبرعات الخيرية، أكياساً شفافة. إنه اليوم الوطني لجمع التبرعات الخاصة بالبنك الغذائي. مدّت لي إحداهن منشوراً عليه صور المنتجات التي يفضّل شراؤها: معلبات، سكّر، قهوة، زيت. قالت لي إنه يجب شراء منتجات النظافة وأغذية الأطفال أيضاً. ثم أضافت بلطف: «لا تشترِ

المعجنات من فضلك، في العام الماضي كان لدينا ثلاثة أطنان!» آه يا أيها المتبرعون الأوغاد. حسناً، ممنوع الشحّ بعمل الخير. عليكم القيام بتشغيل مخيلتكم. شعور بالضيق وحلّ للألغاز: هذا هو عمل الإحسان. بالنسبة إلي سوف ألتزم بالعمل المشرّف وأترك البضائع البخسة الثمن وكأنني أشتري لنفسي. كم هو مبهج أن أستغرق وقتي باختيار الخضار والدجاج والشوكولا. إن هذا أكثر مدعاة للرضى من وهب المال، يا له من إحساس سليم. (فيما بعد، وأنا أفرغ محتوى كيسي الشفاف فوق البساط المتحرك على الصندوق، راودني إحساس أنها تساوي خمسين يورو. بعد التحقق، تبين أنني بالغت في تقدير مبادرتي: ٢٨ يورو فقط لا غير).

في قسم الأجبان، لمحت ثنائياً يافعاً. كانا مترددين كأنهما ليسا معتادين. القيام بشراء الحاجيات معاً للمرة الأولى هو علامة من علامات الحياة مشتركة. بداية ضبط الأذواق، والميزانيات. يبدآن كثنائي حول مسألة الطعام، هذه الحاجة الأولية. أن تعرض على امرأة أو رجل الذهاب معك إلى السوبر ماركت فهذا لا يشبه الدعوة إلى السينما أو إلى المقهى لاحتساء كأس. ليس هناك خدعة أو إغواء ولا غش محتمل. «هل تحب جبنة الروكفور أم جبنة الريبلوشون؟»، «هذه إنتاج مزرعة، ما رأيك لو نطبخ دجاجة؟»

أقسام الألعاب أقلّ ازدحاماً من المتوقع، هناك جدّان يتأملان بقلق دمية كبيرة، تكاد تنبعث من شفتيها الحمراوين وعينيها المحدقتين الإشارة أنها هي وليس غيرها من يجدر بهما أن يختارا. ثمة رجل يجرّ ولده بعيداً عن سيارات التحكّم عن بعد «تعال، سوف نلاقي مومو». طوال سنوات طفولتي، سمعت وقلت مومو وليس ماما، الرجل الذي ذكرني بذلك تواً هو من أصل أفريقي أو من جزر الأنتيل.

يتحدثون باستمرار عن تسوّق آخر الأسبوع بعبارات مثل «عمل سخرة». سواء بعفوية أو عن سوء نيّة. يمكن اعتبار ذلك ثمن الازدهار ونتاج الوفرة. لطالما تطلب العيش العمل، في الماضي أكثر منه في الحاضر، باستثناء المحظوظين، يتكفّل الخدم دائماً بذلك.

في بعد الظهر ذاك، كان الناس مستغرقين في التسوّق.

عند المخرج، مُدّت على الأرض مباشرة قطع الكرتون المسطّح. كانت سيدات البنك الغذائي يصنفن السلع التي أعطيت لهنّ. الزيت هنا، القهوة هناك، إلخ... يا له من شعور مرير تجاه سوق الفقراء المعروض في وضح النهار.

الأربعاء في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر).

اندلع حريق ودمر مصنع غزل ونسيج في بنغلادش، توفيّ على أثره ١١٢شخصاً، غالبيتهم من النساء، كانوا يعملون براتب شهري قدره ٥،٢٩ يورو. يتألف المبنى من تسعة طوابق، من المفترض ألا تتجاوز الثلاثة. حوصر العمال في الداخل دون أن يتمكنوا من الخروج.

هذا المصنع، واسمه Tazreen، كان يصنع قمصان البولو والبلوزات وغيرها لصالح Auchan وCarrefour وPimki وGo Sport وCora وCA وHM.

بالتأكيد، باستثناء دموع التماسيح، لا يجدر الاعتماد علينا، نحن الذين نستفيد مسرورين من هذه اليد العاملة المستعبدة لتغيير أي شيء كان: لن تأتي الثورة إلا من المستَغَلين أنفسهم، من الطرف الآخر للعالم. حتى العاطلين عن العمل الفرنسيين، ضحايا التسريح، هم في غاية السعادة أيضاً لتمكنهم من شراء قميص بولو بـ٧يورو.

الخميس في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر).

رؤية فتاة أنيقة في أحد ممرات الأغذية في أوشان، بفستانها القصير الأكمام وهي تجرّ عربة بدواليب يبدو منظراً غير مألوف. لا شك أنها نزلت من قطار الـ RER واستفادت من قرب المركز للقيام بشراء بعض الحاجيات.

هنا، أكثر من أي مكان آخر، تصعب الإحاطة باللحظة الراهنة ووصفها، ومغزى كل ما يحدث أمام عينيّ في الوقت نفسه وأنا أتابع مسيري. لا أرى من الناس سوى أجسامهم ومظهرهم وحركاتهم. أستنتج إلى حد ما مستوى معيشتهم. ولكن المهم، يبقى غير مرئي بالنسبة إلي، ومخفياً تحت مشتريات نهاية الأسبوع في عرباتهم، التقييم المستمر ما بين سعر السلع وضرورة القوت التي يتجشم عناءها غالبية الناس. كلما قلّ المال مع الفرد، تطلب شراء الحاجيات دقة أكثر دون خطأ. يكتب لائحة حاجياته، يضع دائرة حول أفضل العروض. إنه حساب للتوفير يستحوذ كلياً على أذهان آلاف الرجال والنساء. يمكن تقدير بداية الثراء ـ العيش ببحبوحة ـ هكذا: أن تأخذ من قسم المنتجات الغذائية، دون أن تنظر

إلى السعر قبل ذلك. إنه الإذلال الذي تفرضه علينا البضائع. هي باهظة الثمن، وأنا لا أساوي شيئاً إذاً.

في الطابق الثاني، إذا أردت الجلوس، هناك بالمجمل وللجميع، كرسيان بلاستيكيان صغيران موضوعان في الممر بين جناحين، قرب نافورة المياه. تم اتخاذ الحيطة لحركة سير فعالة. الكراسي تعيق السير وتحثك على الاستراحة. أماكن الطعام والشراب صممت بالتأكيد مثل أماكن العمل، لاستراحة وجيزة ولريع أفضل. تشغل الكراسي نساء متقدمات في السن، أمامهن عربات تسوق، يمسكن بقبضاتها، أو أمهات يطعمن ويسقين أولادهن.

في قسم المكتبة، ثمة رجل يتصفح «*الحياة السرّية لكبار الشخصيات التاريخية*»، إلى جانبه، يُعرض: *القرآن الكريم*، *القرآن للمبتدئين*، *الإنجيل للمبتدئين*. ربما لا نعثر على هذه الكتب إلا في المخازن الكبرى، تتصفحها دون أن تخشى نظرة الآخرين.

الناس يلتقطون الصور في كل مكان، وفي كل زمان. داخل مخزن أوشان، لم أرَ أحداً قط يلتقط الصور بهاتفه المحمول. هل يحق لنا ذلك؟

الأربعاء في ٥ كانون الأول (ديسمبر).

الرابعة بعد الظهر. الطقس ماطر. داخل المركز التجاري، لا يمكن إدراك الوقت، ليس معروضاً في أي مكان. هناك تبديل في المحلات، تغيير في الأقسام، تجديد في البضائع، تجديد لا يغيّر شيئاً في الأساس. يتّبع دوماً الدورة نفسها، تنزيلات شهر يناير حتى نهاية العام مروراً بتنزيلات الصيف والعودة إلى المدرسة.

في هذا الوقت، اجتياز أحد أبواب المركز هو بمثابة الوقوع بغتة داخل هيجان الحركة القصوى، تلألؤ الأشياء، عالم بكامله فوق الشبهات، وأنت ماتزال في الخارج في البرد في موقف السيارات أمام هذا الكرملين بقرميده الأحمر.

الكثير من الناس في قسم الألعاب في أوشان. أولاد منفصلين بشكل صارخ. لا أرى أية فتاة أمام السيارات أو أغراض سبايدرمان، ولا صبي أمام دمى باربي أو هالو كيتي أو دمى ريك وراك التي تبكي.

ذات مرة، عندما كان ابني في عمر السنتين، أراد دمية. رأينا، نحن والديه، أن الاهتمام بالجنس الآخر ينطلق من رغبة ومن فضول مشروع. حصل على الدمية.

في قسم أجهزة الهواتف والحواسيب الكبير بلافتته ـ **تقنيات حديثة، واتصالات** ـ غالبية الزبائن هم ذكور، والبائعون جميعهم شبان يافعون، شخصياتهم جيدة عموماً، يتنقلون بأريحية بين مناضد البيع، واثقين بمعرفتهم بخصوص التكنولوجيا الحديثة. بنظرة خاطفة، بدوا لي كأنهم يشكلون نوعاً من الأرستقراطية التي لا تخلو من بعض التنازل تجاه الزبائن، بالأخص النساء منهم. اثنتان فقط، كانتا تستفسران عن هاتف محمول من أجل فتاة صغيرة، «أريده بسيطاً، من أجل المدرسة فقط»، ما ولّد ضحكات ساخرة ونكات لدى صبيّي الجناح. كان يلزمني وصلة USB. كم يصعب عليّ أن أدرك أن الطلب من البائع التحرك كي يشرح لي عدد الغيغا الذي يجب أن أختاره، يفصح عن جهل مطبق، تؤكده ابتسامته الصغيرة. هذا قسم رجولي حتماً، حيث البائعون الذكور عددهم أكثر، وعاطلون عن العمل غالباً. لم يكن هناك أي كائن في المكتبة.

يستحيل الوصول إلى الطابق الثاني دون المرور بقسم الأسماك الواقع عند مخرج المصعد. يوجد حنكليس(*)، سمك سلمون صغير بـ ٦,٩٩ يورو الكيلو الواحد، أصداف بـ ٢,٩٩ يورو، سمك اللُطّ بـ ١٤,٩٥ يورو. الأسعار بأحرف

(*) حنكليس: سمك ثعبان البحر.

عملاقة، فوق خلفية صفراء فاقعة دائماً. لاحظت أن هذه المغالاة تعمل على طريقة التنويم المغناطيسي، ربما أكون على استعداد كي أصدّق أن هذه الأسماك «هِبة» حرفياً. موظفو القسم يتنقلون بسرعة بجزماتهم ومآزرهم الزرقاء وقبعاتهم القماشية على رؤوسهم. ذاك الذي ظننته المسؤول، بوجهه الفتيّ وشعره الرمادي تحت القبعة، كان يغرف من الثلج حفنات كبيرة في دلو ويرميه فوق البسطة. كان يشير إلى موظف آخر كيف يرتب أسماك القاروس بشكل متوازٍ قبل أن ينثر عليها طبقة الثلج. سألني ماذا أريد. «لا شيء، أتفرج عليك ـ آه، هكذا إذاً ـ ذلك لأنني أكتب عن المخازن الكبرى».

فجأة، صار مهتماً. سألته منذ متى يعمل في أوشان. «عشرون عاماً!» قال ذلك بالفخر الذي نوليه للزمن الطويل مهما كان، سواء يتعلق بوظيفة أو بزواج أو بالحياة نفسها، إلخ. ثم حدّد: «هنا في قسم الأسماك، منذ خمسة عشر عاماً!» فخوراً على الأخص بعمله الذي لم يعد عملاً تنفيذياً، إنما عمل مسؤول على كل المستويات ـ اختيار، تحضير، بيع ـ لسلعة غذائية سريعة العطب. أثناء محادثتنا لم يرفع نظره عن بسطته. بعد قليل وصل زبون، تركني في الحال معتذراً.

هو والجزار والخباز وبائع الألبان، يتمتعون بسبب

خبرتهم العملية باستقلال ذاتي ومسؤولية تضعهم في خانة مستقلة. قبل أن يتحولوا إلى موظفين في أوشان، كانوا أصحاب مهنة، حرفيين. يشكلون نوعا من النبلاء، الذكور عموماً.

الكثير من الناس عند الصناديق التقليدية. اتجهت مكرهة نحو الصناديق الآلية، المخصصة لعشرة سلع كحد أقصى. أمامي رجل وحيد، في الخمّسينات، معه قطعة بيتزا بـ ١,٧٥ يورو، رغيف خبز تحت ورق الألمنيوم، موز وبرتقال. ورائي، طلاب يستعيدون ذكريات الثانوية. يمسك أحدهم بعلبة مثلجات Häagen-Daz. كالمعتاد، كانت واحدة من الآلات الأربع خارج الخدمة. شعرت بالارتياح لأن الآلة التي كانت من نصيبي هي الأبعد عن رتل الانتظار والنظرات التي يرمقك بها الزبائن الآخرون بقلق وهم يحسبون فرصتهم بالعبور السريع تبعاً لخفة يدك أو طيشك. إنه انحراف نظام الصناديق الآلية، العصبية التي يمكن أن تثيرها لديك أمينة صندوق بطيئة تنتقل ليصبح سببها الزبون.

في الواقع، إنه نظام اختباري، إرهابي، حيث يجدر بك اتباع التعليمات حرفياً لتنجح في نيل المشتريات. عملية مقسّمة إلى أطوار يستحيل أن تقلب ترتيبها، وإلاّ سوف يعيد على مسمعك صوت الآلة الاصطناعي المتسلط: «ضع

السلعة عل الميزان، أظهر الـ (code-barra)». مرات عديدة إلى درجة تحملك على عدم الإذعان. يراودك إحساس أن الآلة تزداد عصبية وتعتبرك لا شيء وغير كفؤ. اليوم، بما أنني أم أتلقَ أي تنبه من الصوت للعودة إلى النظام، وبغرور تلميذ نجيب، شعرت أنني أنجزت فرضي بالمجمل، دون أخطاء.

يزداد يقيني أكثر فأكثر أن طواعية المستهلكين لا حدود لها.

الجمعة في ٧ كانون الأول (ديسمبر).

الساعة ٢٠,٤٥. داخل المركز، كل المتاجر مغلقة منذ ثلاثة أرباع الساعة. بعضها أنزل ستارة الحديد قليلاً مثل الصيدلية. وأخرى التي أضيئت واجهتها بضوء ضعيف، نوع من الستارة المعدنية المخرّمة تسمح بمشاهدة البضائع المعروضة في ضوء مخفّف. أُطفئ قسم من أضواء عيد الميلاد، الشوارع المزيفة في شبه ظلام. للناس الذين ألتقي بهم هيئة شبحية. شعرت بالأسى أكثر من باقي الأماسي التي أذهب فيها إلى أوشان ـ المحل الوحيد المفتوح مع مطعم ماكدو وفلانش(*) ـ . سوف يزول السحر في صباح اليوم التالي. أفكر بخبر هزّني لجون ريمون، «جثث فتية»، يخبر عن فتاة وصبي كانا محبوسين ليلة بكاملها داخل مخزن في مركز تجاري دون أن يتمكنا من الخروج منه دون إطلاق جرس الإنذار.

كل الأضواء خبت داخل المخزن الكبير، الخالي تماماً. في قسم الصيدلية، تقوم البائعة بتغليف الشامبو الذي اشتريته

(*) ماكدونالد وفلانش: سلسلة مطاعم خدمة ذاتية.

وتدخل الحساب إلى الصندوق دون أن تقاطع محادثتها الهاتفية. عند المساء، لدى اقتراب موعد الإغلاق، هناك شكل من التساهل المسموح به، ومن البطء السئم في سلوك طاقم الموظفين.

الرفوف مقلوبة رأساً على عقب على نحو غير محسوس. فيها فجوات. لم يعد هناك سكر ناعم. صناديق العرض نصف فارغة. يراودك إحساس أنك وصلت إلى وليمة بعد رحيل المدعوين.

كالعادة، ألاحظ أن زبائن المساء أكثر شباباً ويزداد بينهم التنوع العرقي، مما يتعارض مع زبائن النهار. ساعات التسوق تفرز زبائن المخزن الكبير فرزاً عنصرياً. الصباح الباكر، إنه وقت الأزواج المتقاعدين، بطيؤون وحسنو التنظيم، مع سلالهم الخاصة داخل عرباتهم، دفتر شيكاتهم الذي ينتزعون منه الشيك بحذر على الصندوق، دون أن ينسوا تسجيل لحظة الدفع على الأرومة.

في منتصف بعد الظهر، هناك الكثير من السيدات الوحيدات ـ المسنات أو الشابات بصحبة أطفالهن ـ يتسوقن بعرباتهن المصنوعة من القماش المقوى بالبلاستيك، ما يدل على أنهن جئن سيراً على الأقدام أو في الحافلة، لأنهن لا يعرفن القيادة أو لا يمتلكن سيارة.

ابتداء من الثالثة بعد الظهر، يتدفق الناس الخارجون من أعمالهم. إيقاع سريع ومتزاحم يجتاح الأمكنة. تلاميذ مع أمهاتهم. طلاب ثانوية. بين الثامنة والعاشرة مساء، طلاب جامعة، ونادراً جداً، نساء بأثوابهن الطويلة وحجاباتهن الواسعة بصحبة رجل على الدوام. كما في أي وقت من أوقات النهار. هل يختار أولئك الأزواج المساء لسهولة التسوّق أم لأنهم يشعرون بأنهم أقل عرضة للتحديق بهم في هذه الساعة المتأخرة التي يقل فيها الزائرون؟

ثمة أناس وسكان لا يلتقون أبداً.

علمت من صحيفة البلدية المحلية أن مائة وثلاثين جنسية موجودة فوق مجمل أراضي سيرجي. ما من مكان آخر يتخالطون فيه مثل مركز الينابيع الثلاثة التجاري في أوشان. هنا نعتاد على الحضور المتقارب لبعضنا بعضاً، تحرّكنا الحاجة الأساسية للغذاء والملبس. سواء أردنا أو لا، نشكل هنا مجتمع الرغبات.

منذ خمسة عشر عاماً، ليس وجود «الأقلية» ما ألاحظه في هذا المكان، إنما غيابهم.

الأربعاء في ١٢ كانون الأول (ديسمبر).

أصبح موقف سيارات المركز التجاري مدفوعاً منذ خمسة عشر عاماً بسبب ركّاب قطار الـ RER الذين يركنون سياراتهم فيه طول النهار مانعين الزبائن من ذلك. ولكن ذُكِر في كل مكان، أن هناك ساعتين ونصف بالمجّان. إذا كان الدخول عموما دون عراقيل ـ كبسة زر وتسلمك الآلة البطاقة ـ، غير أن الخروج يكون أحياناً صعباً جداً، بسبب تجاوزك الوقت المخصص بالمجّان أو بسبب توقف مفاجئ في النظام، ونسارع حينئذ لاتّهام أول سائق محشور. عند رفع الحواجز، يلتصق بعض المحتالين بالسيارة التي أمامهم (هكذا يفعل بعض سائقي الشاحنات عند نقاط دفع رسوم العبور على الطرق السريعة). ليس غريباً أن تجد حواجز المخارج مفتوحة في آخر المساء، ربما لتجنب خلعها عمداً.

اختفى الرجال والنساء الذين كانوا يدنون مني في موقف السيارات لطلب يورو. يزداد عدد المشردين أكثر فأكثر في مجمل المجتمع، لكنهم قلّوا شيئاً فشيئاً حول المركز التجاري، باستثناء مكانين لا يشكلان جزءا من الأراضي الخاصة به:

بالقرب من المدخل المظلّل، في التجويف بين الجدار المصمت الذي يقع وراءه أوشان ومبنى «صندوق التوفير»، الذي حوّل قسم منه إلى مكتبة جامعية. وهم فضلاً عن ذلك، يجلسون تحت الشمس على جدار صغير على طول المكتبة، يتفرجون على المارّة الكثر في هذا المكان المرصوف الذي يصل مركز المحافظة ومحطات الـ RER والطرق والبريد وغيرها بالمركز التجاري.

وأمام مدخل ينفذ إلى شارع مشاة حيويّ تحفّه المحلات المستقلّة والتي يقدّم بعضها بقناطره الظليلة ملجأ جيداً. إنه مكان المتسولين، لكنه أيضاً مكان طلب التواقيع لأسباب مختلفة يتباين الصدق فيها، تتماشى حتماً مع طلبات الإحسان.

داخل المركز، هناك عدة سلالم متحركة باتجاهين بين مختلف الطوابق، من بينها واحد مفروش ببساط يتيح إدخال العربة. وآخر أيضاً داخل المتجر، يصل بين الطابقين ولكن مع اثنين للصعود وواحد للنزول. في تلك اللحظات التي نجد فيها أنفسنا مكرهين على الجمود الواحد خلف الآخر، بين أناس يصعدون وآخرون ينزلون، تتلاقى النظرات بفضول، مثلما يفعل الركاب داخل قطارين يسيران متعاكسين ببطء.

كيف ينظر بعضنا إلى بعض؟

يبدو لي أحياناً، أنني هنا سطح أملس ينعكس عليه الناس واللافتات المعلّقة فوق رؤوسنا.

الثلاثاء في ١٨ كانون الأول (ديسمبر)، بعد الظهر.

زحام شديد يبدأ من مدخل المركز التجاري. دويّ هائل تنفذ من خلاله الموسيقا على نحو بالكاد مسموع. على البساط المتحرك، تحت السقف الزجاجي، نصعد نحو الأكاليل والأنوار المتدلّية مثل عقود من الأحجار الكريمة. أمامي امرأة شابة مع طفل في العربة، رفعت رأسها وابتسمت. مالت نحو الصغير وقالت له: «انظر إلى الأضواء يا حبيبي!»

أثناء خروجي من أوشان، صادفت رجلاً طاعناً في السنّ مطوياً اثنين، يتهدّل داخل معطفه المطري، يسير ببطء مع عصا، مجرجراً حذاءه البالي. يتهاوى رأسه فوق صدره، لا أرى سوى عنقه. يمسك بيده الحرة سلّة من طراز قديم. أثّر بي مثل خنفساء رائعة جاءت تواجه المخاطر في أرض غريبة كي تأخذ غذاءها.

٢٠١٣
الاثنين في ٧ كانون الثاني (يناير).

دمى وألعاب مكدّسة دون علب داخل سلّة قماشية، تباع بسعر بخس بحسم ٥٠٪. لا يمكن لشيء أن يذكّر بالعيد بحقيقته أفضل من هذا. بعد أن يمضي العيد، تبقى دمى باربي وكيتي هي نفسها، لكنها تفقد قيمتها كما كانت. مع ذلك، لا أحد ينبش في هذه السلّة، يمكننا أن نعثر فيها بسعر أقل، على دمية أو لعبة مونوبولي نقدمها في عيد ميلاد، أو حتى لعيد الميلاد القادم. إنزال اللعبة إلى درجة «المخلّفات» محبط. إنه قانون المتاجر الكبرى المتحكم برغباتنا. اليوم مثلاً، «فطيرة الملوك»(*) وبياضات المنزل ابتداء من أغطية الريش انتهاء بخرق المطبخ، تدخل في برنامج الترغيب العيني.

ثمة أناس، ليسوا شباباً على الأغلب، يتحدثون لوحدهم أمام الرفوف، يتحدثون بصوت عال مع البضائع. يعبّرون عن رأيهم أو عن استيائهم بخصوص سلعة ما، مدركين أنهم على

(*) فطيرة الملوك: قالب حلوى مصنوع من الرقائق واللوز المكسّر.

مرمى سماع الزبائن المجاورين. يفضَل أن تكون مسموعاً. هناك، ثمة فتاة قصيرة القامة تنظر إلى علب السردين، التفتت ناحيتي وضحكت: «السردين بالفلفل الحار، لا أحبه!» ابتسمت لها بدوري. طريقة غامضة كي أعبّر لها عن موافقة ضمنية على أسبابها، ولكن أيضاً لأعبّر عن نيتي بالتوقف عند ذاك لا أكثر. تأخذني شاهدة على حياتها الخاصة، هأنذا أهرب. مع ذلك، رغبات التواصل تلك التي توجّه إلي من قبل غرباء تؤثر بي بشكل غريب.

استغليت خلو قسم الحسومات الكبرى كي أصوّر لافتات المنع بهاتفي الخليوي. بالكاد تسنى لي الوقت لالتقاط واحدة حتى ظهر رجل بمحاذاتي. من بطاقته المعلقة على ثيابه، عرفت أنه من الأمن.

«لا يحقّ لك التصوير داخل المخزن، هذا ممنوع».

لماذا؟

«هذا ممنوع، إنه القانون»

«أقوم بكتابة تحقيق»

«يجدر بك طلب تصريح من الإدارة إذاً».

لم أفعل شيئاً. أردت البقاء كزبونة عادية وألا ألفت الانتباه إلى وجودي.

الثلاثاء في ٢٢ كانون الثاني (يناير).

داخل قسم كماليات السيارات الخالي، ثمة طفل أسود يلعب بقطعة كرتون كبيرة مفروشة على الأرض وسط الممر. أردت أن أصوّره. ثم سألت نفسي إذا لم يكن ثمة شيء من الظرافة الاستعمارية في رغبتي هذه.

هنا ينتابني شعور غريب، إذ لا أشعر بأن الوقت يمر، بل هو حاضر يتكرر مئات ومئات المرات. لا تاريخ هنا. حتى ذاكرتي خرساء. خارج هذا المكان، دونت كل شيء في بيتي، وأنا أتذكر مشاهد رأيتها في مكان آخر. في مخازن كبرى أخرى وفي أزمنة أخرى.

الوقت: في بداية السبعينات، في مساء شتوي، في مدينة آنسي. حادث في زاوية المشروبات الكحولية في مخزن كارفور. شابان أو ثلاثة، وقفوا بمواجهة فتاة وحيدة. سخر أحدهم قائلاً: «أقول لك إنه لا يمكن أن يكون طفلي!» وانفجر الآخران بالضحك. واجهت الفتاة نكران الأبوة القبيح هذا في العلن رزينة وغاضبة. المأساة هو أن مؤسسة الاستعلام حول الإجهاض IVG(*) لم تكن قد تأسست بعد.

(*) IVG: مركز تابع لوزارة الصحة يقدم المعلومات عن الإجهاض في فرنسا.

في ذاك اليوم، فكرت للمرة الأولى أن هذا المستودع الذي لا يرحم يضم قصصاً وحيوات. تساءلت لماذا لم تكن المخازن الكبرى حاضرة قط في الروايات. ما هو الوقت اللازم كي يدخل واقع جديد إلى مقام الأدب الرفيع.

فرضيات:

١ ـ يرتبط اسم المخازن الكبرى اليوم بمفهوم المعيشة، أي إنه شأن النساء اللواتي كنّ المستخدمات الرئيسيات لوقت طويل. إذ إن، كل ما يتعلق بمجمل هذا النشاط النوعي إلى حد ما غير مرئي جرياً على العادة، ولا يؤخذ في الحسبان، مثل العمل المنزلي الذي تقوم به أيضاً. ما ليس له قيمة في الحياة، لا قيمة له في الأدب أيضاً.

٢ ـ حتى نهاية السبعينات، كان الكتّاب بأغلبيتهم، النساء والرجال على السواء، من أصل برجوازي، ويعيشون في باريس قبل أن تنشأ المتاجر الكبرى. (لم أرَ ألان روب غريه أو ناتالي ساروت أو فرانسواز ساغان يتسوقون في سوبرماركت، جورج بيريك، بلى، ولكن ربما أنا مخطئة.)

الإثنين في ٤ شباط (فبراير).

في حزيران العام ١٩٧٨، أمضيت شهراً في الريف بمفردي. في اليوم نفسه الذي عدت فيه إلى سيرجي، بعد أن تحققت من خلو الخزائن والثلاجة، سارعت إلى مركز الينابيع الثلاثة. عند اجتيازي لعتبة الباب ٦، فكرت بذهول أني قد افتقدت هذا المكان، وأنني عدت للقائه بنوع من الابتهاج الغريب. كأنه امتداد لعالمي الأليف، كنت محرومة منه دون أن ألحظ ذلك.

لطالما التجأت إلى المركز التجاري كي أنسى عدم رضاي في الكتابة، وذلك بالاختلاط بحشد المشترين والمتسكعين. اليوم، يحدث العكس. ذهبت إلى أوشان في عز بعد الظهر، بعد أن عملت منذ الصباح على كتابي هذا وشعرت بالرضا من جراء ذلك. كمن يملأ الفراغ، الذي هو في هذه الحالة، باقي النهار. أو مثل مكافأة. أتبطل عن العمل بالمعنى الحرفي. ترفيه بحت. ربما أستطيع هكذا أن أقارب أكثر متعة الآخرين في هذا المكان، الشباب الذين يتسكعون دون هدف مع كيس بطاطا مقرمشة، أمهات جئن في الحافلة ليقضين بعد الظهر قبل خروج أولادهن من المدارس، وكل أولئك الذين

يأتون إلى هنا ـ كما كانوا يفعلون في المدينة في الماضي ـ «للقيام بجولة».

في الطابق الثاني، بادرتني سيدة في الخمسينات بابتسامة وبشيء من الحرج: «هل أنت آني إرنو؟» لست معتادة على سماع هذا السؤال، كأنني ملزمة بانتحال هوية مزيفة دون أخيب ظنّ المرأة. كانت قد قرأت العديد من كتبي وكتبت لي رسالة منذ خمس عشرة سنة. نشرت لتوّها رواية سيرة ذاتية وخصصت عنها صحيفة ڤال دواز مقالة. دُهشتُ من مصادفتي هناك، فهي تخاف جداً من متجر أوشان، ولا تأتي إليه بتاتاً. قلت لها إنني آتي دائماً إلى هنا ولا يزعجني أبداً. تركنا بعضنا البعض على الوعد أن ترسل لي كتابها.

يجدر بي النزول إلى الطابق الأول حتى أستعيد الهدوء كزبونة غير معروفة. عبرت حيّز المكتبة. فوق كرسي صغير بالكاد مرئي، وراء حاجز يفصله عن منضدة بيع «الاستعلامات» الخالية، امرأة شابة تلبس أزياء عصرية، مستغرقة في قراءة كتاب لم ألمح عنوانه. إلى جانبها، صبي يقرأ مجلة قصص مصوّرة. كانا فرحَين لأنهما يعرفان أنهما يجلسان تحت لافتة منع القراءة بالتحديد.

خُرقت تلك القاعدة بكل الرواق داخل قسم الصحف، المعبّأ تماماً، غير أن صحيفة لوموند لا تباع هنا في المساء

مثل باقي محلات الصحف في إيل دوفرانس[*]، في صباح اليوم التالي فقط. تصفحت مجلات أسبوعية مختلفة. امرأة تقرأ *Oulala!*، شاب يقرأ ١٠ *sport*، وآخر يقرأ مجلة اقتصادية، وفتاة تقرأ *People*، ثمة رجل على حدة جامد في قراءة منشور علمي. على طاولة العرض تجد المجلات والصحف اليومية: *Le Parisien, Libé, Le Figaro, L'Equipe*، لكنه شبه فارغ في هذا الوقت من النهار. أغلفة المجلات مجعّدة. كتيب «*١٠٠ صورة من أجل حرية الصحافة*» يحمل آثار أياد عديدة. يهتم متجر أوشان بالسكاكر الهاربة من دفع الضريبة والتي عليها أعلى الحسومات أكثر مما يعبأ بالصحف التالفة.

أجد هذا المكان مسلياً، هادئاً، شبه سرّي، لأنه غير مرئي تماماً، فهو يقع في آخر المخزن بالتحديد، بالقرب من قسم لوازم الحدائق الضئيل. يجمع فيه جماعة من القرّاء.

(*) إيل دوفرانس le de franceî: أو ما يطلق عليها المنطقة الباريسية، منطقة تاريخية وإدارية وأكثرها كثافة في السكان.

الخميس في ٧ شباط (فبراير).

الساعة الرابعة والنصف. بالقرب من مدخل أوشان، تتجاوزني فتاتان، الأولى مكتنزة، بلباس رمادي بالكامل، وحجابها أيضاً، الثانية، ممشوقة القامة، مع حجاب أسود وجزمة عالية. عدت ورأيتهما في قسم الصحة والتجميل، تتحدثان بحماس أمام طلاء أظافر. إلى عهد قريب، لا تذهب الفتيات وحدهن أبداً لشراء مستحضرات التجميل أو إلى الحمامات النسائية للتبول.

على الصندوق، سيدة تأخذ مشترياتها التي سبق ومرت على الماسحة الضوئية. تضعها داخل كيس بلاستيكي أوشان ببطء يشكّ بأنه متعمّد. أشارت إلى أمينة الصندوق أن أحد أكياسها قد تمزّق وتطلب تبديله. طلبت منها العاملة الذهاب وإحضار واحداً آخر. انسلّت من وراء الزبائن في الرتل، عادت دون استعجال. الكل يتابع بصمت عملها وحركاتها. أدركت أمينة الصندوق التوتر الذي سببته، ساعدت الزبونة في نقل مشترياتها من الكيس المثقوب إلى الجديد. جو من الاستهجان الواضح تجاه زبونة تسمح لنفسها بالاستغراق في وقتها دون مبالاة بالآخرين. زبونة تستخف بالقوانين المتعارف

عليها ضمناً في المتجر وبأصول حسن السلوك الذي يتراوح ما بين الحقوق ـ رفض المادة التي يظهر أنها معيبة، والتأكد من بطاقة الصندوق ـ والواجبات ـ منع القرمشة داخل صف الانتظار، السماح بمرور الحامل والمعوّق، اللطف مع أمينة الصندوق، إلخ.

الحركة التي تعمّ في كل الاتجاهات في المتاجر الكبرى تحلّ فجأة على الصناديق. رتل الانتظار، مصيدة لا يمكن الخروج منها ـ إلا بالذهاب مخاطراً إلى رتل آخر أنحس منه ـ نجمد ثابتين عن الحركة. داخل الممرات، يتحوّل الناس إلى أشياء تلتقي بها ولا تراها بوضوح. عند الصناديق فقط، يصبح كل منها فرداً قائماً بذاته.

يشكل العبور على الصندوق أكثر الأوقات عبئاً بالتوتر والسخط. أمام أمينة الصندوق التي نبادر إلى تقييم سرعتها أو بطئها. مثلاً: هناك زبائن معهم عربات تفيض (ولكن ليس أكثر من عربتنا)، لم يلحظوا غياب شارة السعر عن أحد مشترياتهم وعليهم العودة إلى القسم لتبديلها، آخر يخرج من حقيبته دفتر الشيكات ويبدأ سلسلة من الإجراءات ـ انتزاع الشيك بحذر، التحقق من بطاقة الهوية، كتابة رقم البطاقة على ظهر الشيك، توقيع الشيك، تسليمه، إلى اللقاء وشكراً ـ طقوس لا تُغتفر، مزيد من الانتظار.

ساعة الانتظار على الصندوق، تلك الساعة التي نكون فيها أقرب ما نكون إلى بعضنا البعض. نراقِب ونراقَب، نصغي إلى الآخرين ويصغون إلينا. أو ببساطة، نكون متماسكين بطريقة غريزية، ومتردّدة.

نعرض هناك، كما لم يحدث في أي مكان آخر، طريقة عيشنا وحسابنا في المصرف. عاداتنا الغذائية واهتماماتنا الأكثر حميمية. حتى وضعنا العائلي، فالمشتريات التي نضعها على بساط الصندوق تقول إذا كنا نعيش بمفردنا أو كثنائي، مع طفل أو مع أولاد يافعين، أو مع حيوانات.

نعرض أجسامنا، حركاتنا، سرعتنا أو رعونتنا ـ وضعنا كغرباء عندما نطلب مساعدة أمينة الصندوق لإحصاء مشترياتنا. نعرض اهتمامنا بالغير ـ عندما (نضع فاصلا وراء مشترياتنا من أجل الزبون التالي، ونرتب سلّتنا المفرغة فوق الأخريات.

ولكننا لا نعبأ في أعماقنا من عرض أنفسنا في مكان نجهل فيه بعضنا البعض. وأغلب الأوقات لا نتحدث. كأنه من السخف البدء بمحادثة أو ببساطة، لا يمكن تصوّر ذلك بالنسبة إلى البعض بهيئتهم التي تدل على أنهم هناك دون أن يكونوا هناك، ليشيروا إلى أنهم فوق معظم زبائن أوشان.

الأربعاء في ١٣ شباط (فبراير).

الثالثة بعد الظهر. اليوم عطلة مدرسية، تُسمع ضحكات شلّة من البنات من قسم لآخر. لاحظت أن إحداهن بالغت في تبرجها، يبرز لون أحمر شفاهها الوردي الفاقع بلون شرائط حذائها.

في القسم المخصص للمواسم، وُضعت طاولات، وهناك أطفال يرسمون. بداية سنة الثعبان كانت يوم الأحد الماضي، ولم يفت مخزن أوشان الحدث إذ اقترح «الأسبوع الصيني» مع «نشاطات» وكتابات «تصويرية»، إلخ.

بينما كنت آخذ أكياس طعام لقططي، بادرني رجل شائب بالكلام:

«عندي كلب عمره ستة أشهر، هل يمكن أن أقدّم له طعام معلب؟»

«ليس عندي كلب، ولكن أظنّ أنك تستطيع. لا ليس هذه - أراني علب للكبار - يلزمه للصغار».

أخرجت من الرف رزمة فيها أربع علب. نظر وارتاح.

«شكراً جزيلاً. أحفادي أرادوا كلباً. معلقون به جداً، نعم!»

ابتسم، مشى بضع خطوات إلى جانبي. كان يرغب أن يقول إلى سيدة غريبة إن لديه كلب عمره ستة أشهر، هكذا فقط. لاحظت أنه من بين كل الأقسام، قسم الحيوانات هو أكثرها تحفيزاً على الكلام.

على رتل الانتظار ثمة سيدة مع ولديها تلتقي بأخرى من معارفها ومعها ولدان أيضاً، تناديها. تقول الثانية متعجبة: «ها نحن هنا، سوف نتوقف طويلاً، لن يسير الدور بسرعة!»، تلمّح إلى الصندوق الآخر. يتسلّى الأولاد الأربعة مع بعضهم البعض، تثرثر الأمهات، يتحدثن عن رأس السنة الصينية بحماس (بالمناسبة، هن لسن آسيويات): «في المدرسة، أكل الأولاد طعاماً صينياً!» من يعلّم، المدرسة أم السوبرماركت؟ ربما الاثنان.

عثرت على لائحة مشتريات في عربة كتبت بقلم حبر ناشف:

سلطة

طحين

جامبون ودهن خنزير

جبنة مبشورة ولبن

نيسكافيه

خلّ

قارنتها بلائحتي:

جبنة ريكوريه

بسكويت طري

جبنة ماسكاربوني

حليب، قشدة

خبز طري

علب ومقرمشات للقط

مربعات ورق لاصق

يضم المخزن الكبير نحو ٥٠٠٠٠ قسماً غذائياً. إذا اعتبرت أنه علي استخدام مائة منها، يبقى لي ٤٩٠٠٠ واحداً أجهله.

الأربعاء في ٢٠ شباط (فبراير).

داخل مخزن أوشان الحركة سلسة، دون عرقلة في العربات أو تصادم بين سائقيها، لاحظت أن الزبائن مثل سائقي السيارات، لا ينظرون إلى بعضهم البعض. هناك أولاد يجرون سلالاً بعجلات أكبر حجماً منهم.

في قسم الأطعمة المجمّدة، ومن بين العروض، بيتزا بويتوني بـ ٣,٩٩ يورو، خدعة الـ ٩٩ التي تجعل السعر يبدو أقل ما تزال سارية. ربما يبيع المخزن الأطعمة التي أساسها اللحوم، بعد قضية لحوم الأحصنة التي ألصق عليها «لحم عجل» والتي حرّكت الرأي العام.

رتل الانتظار الذي أقف فيه يصل إلى صندوقين، لبرهة، كان من المجدي أن أختار بين أمينتي الصندوق اللتين تدير إحداهما ظهرها للأخرى، وأن أجري حساباً حاذقاً للسرعة المفترضة لكل منهما وعدد سلع الزبون التي أمامها. اليوم، وأنا أرى تلك التي في الجهة اليسرى وهي تدير سلعة بين أصابعها وتنظر من فوق نظارتها كي تتحقق من الشيفرة، أراهن على الأخرى، شابة سوداء، تزيّن جبينها على نحو جذاب عصابة سوداء، على الرغم من أن عربة الزبونة التي

تسبقني تنوء بثقلها بالمشتريات. تلك السيدة الستينية تحرّكها رغبة منهجية بالترتيب. تضع رزمة المعكرونة على الشريط، ثم تغيّر وضعها، تنبش كي تضع سلعاً قبل أخرى، تزفر مرات عديدة كأنها أنهكت من إتمام وظيفتها. ما الذي سقط: تبعثرت أغراضها على طول الشريط، يستحيل وضع أغراضي. أخذت كيساً كبيراً من البلاستيك القاسي الأحمر، نفضته بقوة كي تفتحه، مرّت إلى الجانب الآخر كي تستعيد أغراضها. حشرتهم بمهارة مفاجئة وسدّدت بالبطاقة. ألحظ على محيّاها الارتياح بعد إنجاز مهمتها على أحسن وجه. لم تكن عربتها عربة امرأة وحيدة.

تظل المتاجر الكبرى مجال انتشار للوجود الأنثوي، امتداد لعالم المهام المنزلية الذي تتقنه بانتظام، تجوب بين الأقسام وداخل رأسها ما ينقص في الخزائن والثلاجات، لشراء كل ما يلزم رداً على السؤال المتكرر: «ماذا سنأكل هذا المساء؟ غداً؟ الأسبوع كلّه». هذا التفوق على الرجال في منافسة الطبخ هو ما يجعلهن يخترن دون تردد المنتجات اللازمة للطبق الذي سيحضّرنه، بينما نرى الرجال يقفون بين الرفوف دون حراك، يهاتفون زوجاتهم لنجدتهم، الهاتف على الأذن: «قولي لي إذاً، أي نوع من الطحين عليّ أن أختار؟»

حوار على قناة فرانس أنتِر، منذ بضع سنوات بين صحفيَين، في الثلاثينات من عمرهما:

«ثلاجتي مليئة دوماً، أمي تملأها لي!»

«آه، بالتأكيد، هذا حالي أيضاً!»

كانا يضحكان راضيين لأنهما بقيا، بشكل من الأشكال، رضيعَين.

الخميس في ٢٨ شباط (فبراير).

لوحة القيادة في السيارة تشير أمامي إلى «٣» درجة مئوية في الخارج. هذه المتعة أن يغمرك الدفء فور تخطيك البوابة رقم «٢» للمركز التجاري، وتنتقل إلى جو لطيف شبيه إلى حد ما بالنزول من الطائرة في القاهرة وأنت قادم من باريس. وداعاً للطين والبرد، وداعاً للطقس الشتوي المكفهر، وحركة السير. أمشي على مهل، أستسلم للدفء، أفقد الإحساس بالوقت حيث لا وجود لساعة تشير إليه. أرى فتيات يلبسن القليل. خُلعت معاطف الأطفال المبطنة وطويت فوق العربات. إنها نزهة الصيف في قلب الشتاء.

أذكر دهشتي عندما دخلت المركز للمرة الأولى في منتصف السبعينات. التجأت من المطر والسيارات ورحت أتسكّع في الممرات النظيفة والمضيئة، والمفروشة بالموكيت الذي يخمّد الضجيج، أدخل على هواي إلى الدكاكين العديمة الأبواب، أتصفّح الكتب في مكتبة «زمن العيش»، أترك الأولاد دون خوف يركضون هنا وهناك. كنت أشعر بحماس خفيّ لأنني في قلب المخزن الكبير نفسه، فهو يبدو لي مكاناً رائعاً. كان ذلك بمثابة رفاهية في العيش.

اليوم، كنت أشاهد الناس تجول ببطء أمام الواجهات دون إلقاء نظرة عليها إلا فيما ندر. هناك سيدتان تجلسان على مقعد قبالة المصعد، بين مخزن CA ومحل فاخر يباع فيه ملابس Karl Lagerfeld. أليس المجيء إلى المركز التجاري طريقة لتكون مقبولاً في المشهد الاحتفالي، ولتغطس بشكل فعلي - وليس من خلال شاشة التلفزيون - في الأضواء والبحبوحة، كي تكون لك قيمة الأشياء نفسها. يمكنك في هذا المكان أن تشعر بأنك تائه، متوعّك، ولكن حاشا أن تشعر بالانحطاط.

الخميس في ١٤ آذار (مارس).

عند الصندوق، في مخزن أوشان، تقف أمامي سيدة تلتفت بعناد نحو أمينة الصندوق. جلّ ما أراه حجابها المزركش بالأخضر والفضي، يسترسل من منبت شعرها حتى أسفل ظهرها. لم تخرج مشترياتها من سلّتها، تنتظر أن تسجل الزبونة التي تسبقها مشترياتها كي تضعهم على الشريط. معها كيس فيه عشر أرغفة خبز طويلة وعدة رزم من معكرونة بانزاني. حركاتها ليست بطيئة، لكنها متأخرة على نحو ملحوظ، ومترددة. تفتح محفظة نقودها، تخرج منها ورقة نقدية وقطع معدنية، تضعها على الشريط. تعدّ أمينة الصندوق القطع النقدية، تطالب بقطعة أخرى، ثم بأخرى. تستغرق بعض الوقت. انصرفت مع كيس خبزها الثقيل دون أن تتفوّه بكلمة واحدة. أثناء كل المعاملة، فكرت بالمحنة التي يمكن أن تمثّلها بالنسبة إليها رحلة المجيء بمفردها إلى أوشان وكأن ليس لديها ما يكفيها من عبء هذا الخمار كي تحتمله.

ها قد حلّ دوري. كالمعتاد، تنحني أمينة الصندوق لتتحقق من أنني أفرغت العربة كلياً فوق الشريط. تركت

داخل العربة صحيفة لوموند التي اشتريتها من كشك الصحف من المركز وليس من أوشان. ولكن، تذكّرني أمينة الصندوق بشدّة بالنظام. قلت إنني لم أشترِ هذه الصحيفة من هنا، وظننت أنني أبرّر أقوالي أكثر، أردفتُ بتكبّر دون وعيّ مني: إن هذا العدد لم ينزل للبيع في أوشان بعد، ولن يكون قبل صباح اليوم التالي. كأن دورها كأمينة صندوق هو التحقق من تاريخ الصحيفة. أعادت على مسمعي إن كل ما يُشترى من خارج المخزن، يجب أن يوضع في كيس بلاستيكي عند المدخل. «هل تفهمين، إذا حدث تفتيش، سوف يقع الأمر على عاتقي. يزداد التشديد أكثر فأكثر، من سيء إلى أسوأ».

فكرت للتوّ بنفسي عوضاً عن التفكير بموقفها. وضعها الذي وصفته «من سيء إلى أسوأ» يلاحقني. من بين السبعة ملايين عامل في فرنسا، غالبيتهم أمناء صندوق.

في لغة المخازن الكبرى، تعبير «نتاج أمينة الصندوق» يعني: عدد السلع التي يتم مسحها ضوئياً في الدقيقة. ٣٠٠٠ سلعة في الساعة رقم جيد.

الاثنين في ٢٥ آذار (مارس).

الساعة العاشرة صباحاً. عندما يكون المخزن شبه فارغ، مثل هذا اليوم، ينتابك شعور بالهلوسة من فرط السلع. يهيمن صمت الموت على البضائع المرصوفة على مدّ النظر. حتى الزبائن، تبدو حركتهم بطيئة وكأن نوعاً من الوجوم قد حلّ بهم، ذاك الذي تحدثه رؤية شبه واقعية للأغذية المكدّسة والأشياء، أو ربما الناس أنفسهم يستغرقون كل وقتهم في يوم الاثنين هذا ـ عمال عطلتهم اليوم ـ، أو هم هكذا دائماً أولئك المتقاعدون.

العربة التي أخذتها من الطابق الثاني تسير بصعوبة. لاحظت أنها مكسورة في أحد الجوانب، تم نزع السلسلة المخصصة لتعليقها بواحدة أخرى. لا شك أنها سافرت إلى خارج موقف السيارات واستخدمت للنقل أو للعبة تصادم السيارات. غير معقول ما يمكن أن نفعل بعربة تسوق دون شك. لا أفهم لماذا توقفوا عن إعارتها مقابل ١ يورو! مع أنها صفقة رابحة. أحاول الآن ترويض تلك بطريقة ماهرة إلى حد ما.

مفاجأة! انتقل مركز بيع الصحف إلى الطابق الثاني، بعد

البياضات المنزلية، بالقرب من أحد المداخل وصفّ من الصناديق، مكان واضح للعيان مكشوف أكثر من ذي قبل. أصبح الآن نوعاً من الردهة الواسعة والمضاءة بشدّة، فيها الصحف والمجلات مرتبة بشكل جيد على طول الجدارين المتقابلين. تغيب أية إمكانية للجلوس، ولا حتى فوق أكداس الصحف، أو في ركن منعزل. يبدو كل شيء في المكان لجعله غير مضياف ويثنيك عن البقاء هنا من أجل التصفح أو القراءة. فضلاً عن ذلك، ليس هناك أحد.

بيض عيد الفصح بكميات غزيرة منذ الآن. غاب عن ذهني أن المخازن الكبرى لا تنسى شيئاً. لا شك أن ملابس السباحة في صناديقها الآن، تنتظر أن تُفك وتخرج لعيد الأم. اللجاجة التجارية، تقرّب المستقبل وتجعل ماضي الأسبوع المنصرم في مهب النسيان.

ثمة رجل يلبس معطفاً، يضع نظارات، كان يدندن وكيسه البلاستيكي الصغير بيده. لاحظت غياب الموسيقا داخل مخزن أوشان، ربما كي لا تتضارب مع موسيقى المركز كلّه التي بالكاد تُسمع. بدأت أتحسّر على غيابها، تلك الأغاني التي تصلك فجأة كي تدقّ على باب الذاكرة وتبهجك على نحو لا يمكن تفسيره في اللحظة نفسها التي تلتقط فيها صندوق مياه معدنية، ذات مرة في مخزن لوكليرك، كانت داليدا تغني *come prima*.

الأربعاء في ٣ نيسان (أبريل).

في الطابق الأول من مخزن أوشان، معرض لبيع الخمور في قسم العروض الموسمية. هناك رجال فحسب. وراء الخمور، ثمة عرض آخر: جداران متعامدان من الأحذية النسائية الصارخة الألوان، خضراء، حمراء، وردية... تتوزع هنا وهناك وكأنك في صالة استقبال مقاعد نفخ للجلوس وتجريب الأحذية بكل راحة. لا تزال هذه «الدعوة» ـ قد يكون هذا هو المقصود ـ مرفوضة.

في الطابق الثاني المخصص للأغذية، تبدو لي اللافتات الصغيرة الصفراء المعلّقة فوق السلع تعمي الأبصار أكثر فأكثر. الحساب نفسه دائماً فوق صواني اللحوم: سعر لحم الخنزير بأقل من ١ يورو للشخص الواحد. تم التدقيق في كل شيء. يأكل الشخص المذكور ١١٠غ، ما يتبقّى في صحنه بعد الطبخ، دون البقايا: يعادل ٨٠غ دون شك. أجري حسابي بسرعة: عائلة تتألف من أربعة أشخاص، إذا أكلت كل يوم هذه الحصة الفقيرة من اللحم، سوف تنفق رغم ذلك ١٢٠ يورو في الشهر. هذا هو فن المخازن الكبرى الذي يخدعك كي تصدّق عملهم الخيري.

عشرات الأكياس من بيض عيد الفصح تباع بسعر بخس، ملقيّة داخل سلال بيع التنزيلات. كومة تثير الاشمئزاز بشكل غامض ولا تشدّ انتباه أحد. مضى على نهاية العيد ثلاثة أيام.

ثمة امرأة مع عربة أطفال مزدوجة تشغل ممر منتجات الحليب: توأمان جميلان تشع نظراتهما الذكية، تلاحق كل شيء حولهما.

عند الصندوق حيث سيتوجّب عليّ الانتظار بعض الوقت، قدّمت لي سيدة معها سلّة بعجلات مكانها بما أنني كنت أنوء بحملي الثقيل. هل كان يبدو علي التعب إلى هذا الحد؟ هل أبدو عجوزاً؟ ابتسمت لي وهي تقول إنها تعرفني ككاتبة. تبادلنا عبارات بخصوص المخزن حول الأولاد المتكاثرون هنا يوم الأربعاء. بدأت وأنا أضع مشترياتي فوق الشريط المتحرك أفكر بشيء من الانزعاج أنها سوف تشاهد ما اشتريت. صار لكل سلعة معنى ثقيلاً جداً، كاشفاً عن نمط حياتي. زجاجة شمبانيا، زجاجتا نبيذ، حليب طازج وجبنة سويسرية بيو، خبز طريّ، لبن زبادي للريجيم، كريات طعام للقطط، مربى إنكليزي بالزنجبيل. أنا بدوري أخضع للمراقبة. أنا شيء.

الجمعة في ٥ نيسان (أبريل).

منتصف النهار، أنا في نقطة بيع الصحف في أوشان. لا أعتاد على الأماكن التي تباع فيها الصحف دون بائع يمكن أن يقول لي أين الصحيفة التي أبحث عنها. لتعذّر وصولي إلى مجلة «الأسبوع الأدبي»، آخذ صحيفة «لوموند» الصادرة عشية أمس.

لا أحد أيضاً على الصندوق الآلي حيث تقف فتاة تبدو مرتبكة، وتزداد عصبية لا تعرف أين تضع المشتريات التي تخرجها من السلّة، شيء ما يدفع بها إلى الجنون، كل تلك النظرات الموجهة إلى حركاتها بينما صوت الآلة المريع يأمرها مراراً وتكراراً: «ضعي السلع على الميزان» كأنها تتحدّث إلى شخص أبله. بانقلاب مدهش للأدوار، تبدو الآلة ذكية والبشر أغبياء. أنا أيضاً، لم أعتد قط على هذا النظام. من الآن فصاعداً، يمكنك الدخول والخروج من المخازن الكبرى مثلما يحدث في فنادق الفورمول ١ [*] دون أية كلمة أو نظرة للآخرين.

(*) فنادق الفورمول ١ : سلسلة فنادق رخيصة نسبياً.

قرابة ثلث الصناديق اليوم أوتوماتيكية، تُجمع كل أربعة أو ستة، ولا تتطلب وجود سوى موظف مسؤول عن مراقبة حسن سير الآلة. خلال النهار، الصناديق التقليدية أقلّ مرتين من تلك الآلية. اختفاء أمناء الصندوق يزداد باطراد.

الجمعة في ١٢ نيسان (أبريل).

في أحد الممرات، أصادف امرأة تغطي شعرها تحت حجاب أسود تظهر من تحته عصابة رأس بيضاء شبيهة بقبعة الراهبات في أيام طفولتي. تينك الراهبات اللواتي كنّ يثرن سخريتنا، ليس بسبب لباسهن بقدر ما هو بسبب نذرهن العفة مدى الحياة، ـ ما كان يبدو لنا سخيفاً ـ دون رجل بتاتاً، كيف يمكن ذلك! لا يمكن مقارنتهن على الإطلاق مع السيدة ذات الحجاب، التي ربما كرست نفسها لله ولكن لرجل أيضاً. ثمة رجل إلى جانبها وهذا شيء مختلف تماماً. إلا إذا كان الله والرجل يشكلان شيئاً واحداً. ولكن هنا أيضاً، في مقياس المتعة، المرأة المسلمة هي الرابحة دائماً. أما في مقياس الحرية؟ ولكن، كيف يمكن تقدير ذلك؟ وما علاقتي أنا بهذا الأمر؟ لماذا قد تشغل بالي حريتهن أكثر من حرية النساء الأخريات؟ لو كنت مكانهن، لشعرت بالفخر ضمناً لأنني أثير كل هذا التساؤل. ووسائل الإعلام لا تقدم لهن الفرصة للرد.

الثلاثاء في ٢٣ نيسان (أبريل).

الساعة الثالثة وخمسون دقيقة من بعد الظهر. غادر الشباب نقطة بيع الصحف الجديدة. ثمة رجل فقط يقف أمام رف طافح بمجلات الكلمات المتقاطعة، وسيدة أخذت بيدها كتاب «٦٠ مليون مستهلك»(*).

في قسم المنظفات، هناك ثلاث نساء سوداوات يتشاورن، رؤوسهن متقاربة أمام ماركات مساحيق الغسيل المختلفة. كبحت رغبتي في تقديم النصح لهن.

أرى سيدة وفتاتين ومراهق وسيدة أكبر سناً، قد تكون الجدّة، يمشون بمحاذاة أوراق المراحيض والمناديل الورقية، الواحد تلو الآخر بخطا حازمة، دون عربة. المرأة المسنة في المؤخرة تحتج قائلة: إنه كبير كمخزن!

فاجأتني ملاحظتها. إن الألفة مع مكان ما يعني عدم الإحساس بأبعاده بعد ذلك. محا الاعتياد في داخلي واقع المساحة ـ مساحة أوشان: عدة آلاف من الأمتار المربعة ـ .

(*) ٦٠ مليون مستهلك: مجلة تشرح للمستهلك أفضل طرق الشراء.

واقع سجله جسمي، مع ذلك، أفضّل التخلي عن غرض نسيت إحضاره من الطرف الآخر للمخزن على أن أعود إلى هناك سيراً على قدميّ.

الأربعاء في ٢٤ نيسان (أبريل).

انهار مبنى من ثمانية طوابق بالقرب من داكّا في بنغلادش. هناك زهاء ٢٠٠ قتيل على الأقل. مشاغل لصناعة الألبسة الجاهزة يعمل فيها ٣٠٠٠ عامل لصالح ماركات عالمية. هذا الإيضاح بالطبع، ومنذ زمن طويل، لا ينفع شيئاً.

الثلاثاء في ٣٠ أبريل.

أمام مدخل أوشان، في الطابق الأول، وعند أسفل البساط المتحرك الكبير ذي الاتجاهين، ثمة حيّز رُتّب على شكل صالة انتظار، فيه مقاعد من الجلد الصناعي بلون الكستناء، تتعاكس بشكل تبدو فيه مثل كنبات ثنائية. نادراً ما تكون خالية، في الصباح يشغلها في أغلب الأحيان رجال مغاربة شيب، يجلسون هناك ويتسلون بمراقبة الزبائن الداخلين والخارجين ورواح ومجيء الحارس ـ عملاق أسود يطوف مباعداً خطواته في الخارج على امتداد خط الصناديق، يرقب أي حادث محتمل ينتج بشكل خاص من منع الدخول مع حقيبة ظهر أو سلعة مشتراة من مكان آخر ـ يجدر ختمها داخل مغلف بلاستيكي شفاف بواسطة آلة ـ آلة قاطعة غريبة ـ. كأنك على شرفة مقهى ولكن بالمجّان، يمكنك أن ترى تعاقب الناس ونشاطاتهم. في أثناء ذلك، تستطيع أن «تنسى نفسك».

في بعد الظهيرة ذاك، ثمة رجل ينام هناك وقد روى غليله من علبة بيرة إنكليزية أسندها على مسند الكرسي. وسيدتان تثرثران.

الاثنين في ٦ أيار (مايو).

لدي إحساس أن بعض المنتجات لم يشترِ منها أحد قط، ورفوف لم يرتادها أحد أبداً، حتى في تواقيت مختلفة.

في المقابل، هناك دائماً زحام أمام أكوام العطارين الغريبة المتنوعة، علب العقاقير المتنافرة، شاي جاوه(*)، عسل ملكي، كولاجين بحري؟ ثمة رجل يتأملها. أقرأ: يحرق الدهون، يزيل الماء الزائد، يوقف الوزن عديم الفائدة. أتخيّل جسمه ينضح الماء من كل مسامات جلده وهو يتلاشى. يقع هذا الجناح في مكان مناسب في الممر ما بين جناحين في الطابق الثاني، وهو يكمّل الأقسام الأخرى المثقلة بالأغذية ويعالج الشعور بالذنب من كثرة الأطعمة.

بعد أن أنهيت مشترياتي، ذهبت إلى قسم المكتبة كي أهدي نفسي كتاب «حياتان أفضل من واحدة» للكاتب جان مارك روبير. بحثت عنه دون مغالاة في الغرور على منضدة عرض أفضل المبيعات التي يبلغ طولها ثلاثة أمتار وتضم

(*) شاي جاوة: عشبة موطنها جنوب آسيا تستخدم أوراقها مغلية لاضطرابات الكلى والمثانة وتطهير وتحسين الدورة الدموية.

عشرة عناوين فحسب، كأن ليس هناك كتباً يجدر قراءتها سوى هذه، وهي حتماً الأفضل. رأيت كتب مارك ليفي، فرانسواز بوردان، لوران بافي، ريجين دوفورج، ويا للمفاجأة، روبير، ولكن لا، إنه اسم كاتبة أميركية اسمها الأول نورا. كما أنني لم أعثر عليه فوق طاولات ينتشر عليها الحابل بالنابل من روايات وتحقيقات وسير ذاتية. بعضها أصبح بالياً. ثمة رجل - ربما يكون المسؤول عن القسم، لم أره حتى الآن - يتوجّه نحو نوع من المقرأ بهيئة منهمكة، يفتح سجلاً ويكتب. شعرت أنني سوف أزعجه وهو يقوم بحساباته لو طلبت منه الكتاب الذي لم أعثر عليه، حزينة ومُهانة مسبقاً من جواب مراوغ: «لا، ليس موجوداً». كأنني أبحث عن سلعة لم تكن هنا قط.

في النهاية، إن وضع كتاب فوق الشريط السيّار على الصندوق أمر يسبب لي الضيق دائماً، مثل انتهاك للمحرمات، مع ذلك، سوف أكون سعيدة لو رأيت أحد كتبي يُخرج من عربة وينزلق بين قالب زبدة وجوارب نسائية.

الجمعة في ١٠ أيار (مايو).

الرابعة والنصف من بعد الظهر، إعلانات في كل مكان عن عيد الأمهات في المركز التجاري. في أوشان، خصص قسم بكامله مملوء بآلات المطبخ والمكانس الكهربائية وآلات صنع القهوة ـ الأكثر رواجاً على ما يبدو، عطور، إلخ.

إنها عطلة المدارس الصيفية، وهناك بشكل خاص نساء وعربات تسوق وأطفال. أتخيّل الرتل الرائع الذي يمكن أن تشكّله كل أولئك الأمهات المنتشرات هنا مع عرباتهن وأولادهن، لا شيء يشغلهن سوى الطعام وتربية المواشي. رؤية ما قبل تاريخية.

الأربعاء في ١٥ أيار (مايو).

حصيلة انهيار رانا بلازا في بنغلادش: ١١٢٧ قتيل. عُثر من بين الأنقاض على بطاقات ماركة Auchan, Carrefour, Camaïeu.

الخميس في ٢٧ حزيران (يونيو).

اللافتة الطويلة المنشورة فوق المدخل الثاني للمركز التجاري تعلن في الأعلى SOLDES. في الأسفل، وبحجم هائل، وجه باسم لامرأة في الثلاثينات، وفي الخلف، وجه رجل وولد. لم يتغيّر شيء منذ «*سعادة السيدات*»[*]، *النساء* هن دائماً أول هدف تجاري (برضاهن).

كي أتفادى الزحام، أختار التسوّق من أوشان بعد أن تغلق المتاجر الأخرى كلها في الثامنة. مع ذلك، هناك زحام شديد في الممرات المخصصة للأغذية والصيانة حيث تركّز التنزيلات على اقتراح المادة نفسها بكميات كبيرة جداً. هناك سيدة تدفع بعربتها الطافحة، تتوازن في أعلاها عدة رزم كبيرة الحجم من مناديل الحمّام، خمسون لفّة على الأقل. منطق لا يرحم يدعو للتكديس: «نحتاج دائماً إلى البازيلاء في البيت»، كما كانت تقول إحدى الدعايات القديمة. ونحتاج

(*) سعادة السيدات: رواية للكاتب الفرنسي إميل زولا نشرت في العام ١٨٨٣، تأخذ القارئ إلى عالم المخازن الكبرى، إحدى ابتكارات الإمبراطورية الثانية.

دوماً إلى مناديل الحمّام، وللشامبو، وللزيت، ولحليب طويل الأمد... إلخ. حكايات وأفلام المجاعة لا تُحتمل.

مفاجأة! ـ هذا هو مبدأ المخزن الكبير، التحفيز المستمر ـ سلع العودة إلى المدرسة ظهرت في القسم الموسمي. صورة فتاة صغيرة تجلس على الأرض تطوي مصوّراً للعالم. في الطابق الثاني، إنه الأسبوع الشرقي: سميد، تمور محشوّة بعجينة اللوز، ليمون حامض مجفف، راحة حلقوم لا تقاوم، يغطيها السكر الناعم. عادت إلي شهيتي الطفولية وامتلأت نفسي حبوراً للحظات لأن مكاناً يضم كل هذه الأطايب بوفرة موجود في حياتنا.

الأربعاء في ٣ تموز (يوليو).

السابعة والنصف مساء. تم ترتيب قسم افتتاح المدارس كلياً، مشعشعاً بالحقائب المدرسية ومحافظ الأقلام والدفاتر واللوازم، يتلوّن كل منها أكثر من الآخر. مشهد مدرسيّ خلاّب لم يكن ليحلم به الأولاد منذ عشرين عاماً. **أعِدْ حقيبتك المدرسية القديمة واحصل على شيك بـ ١٠ يورو.** تضاف على حساب حقيبة جديدة تشتريها كما يُفترض. لا يفوت الوقت أبداً على تذكير المستهلكين بقيمة الجمال لكل ما هو جديد، على حساب قيمة الاستعمال. كيف بوسعك أن تقاوم هذا الوعد بالسعادة، أن تحمل معك في يوم العودة إلى المدرسة القادم حقيبة جديدة تماماً وتصبح من جديد بالنتيجة تلميذاً جديداً، على أعتاب سنة دراسية جديدة... ولكن أين تذهب الحقائب القديمة؟

أنظر إلى الدفاتر المدرسية. يبدو أن دفتر الوظائف المفضّل هذا شائع جداً من الصف التحضيري، لا بل من الحضانة. كم هي غبية هذه الأغلفة - حيوانات من قبل التاريخ، وحوش، سبايدرمان، إلخ - وكم تدعو للتمييز بين الجنسين. ميكي يسأل بصرامة صاحب الدفتر: «هل عملت

وظائفك؟» بينما تمتدح ميني نظيرتها الأنثوية: «أنتِ الأفضل!»

لدى مغادرتي لهذا الجناح، تنبهت للسرور الغريب الذي أحسسته هناك.

الانتظار على الصندوق هذا المساء لا نهاية له. استسلمت خاضعة. سقطت في نوع من الوجوم حيث ضجيج المخزن الكبير في ساعة الازدحام تلك يذكرني بصوت البحر عندما أنام على الرمال.

الخميس في ١١ تموز (يوليو).

الوقت: في عز بعد الظهر، المكان: في الطابق الثاني. أحاول دون جدوى انتزاع إحدى العربات المربوطة بسلاسل بعد أن أقحمت قطعة يورو في الآلة. اتجهت ناحية الحارس الأسود الذي يجول طوال النهار أمام الصناديق. أفرج عن العربة المعندة بواسطة أداة، وأشار لي بحركة منه إلى العربة التالية. سئمٌ وعصيٌ على الفهم، ها هو يعود إلى مراقبة الحركات والحقائب وأسفل العربات بكل فتور وضجر.

إنه موسم جنون الفاكهة والخضار. عربات تتصادم. وجوه عازمة. أذرع وأياد تغطس في جبال المشمش بسعر يورو واحد للكيلو، تتلمّس، ترمي، تعبئ الأكياس بابتهاج كأنها تقطف عن الشجر. الثمار قاسية كالحجر.

على بعد بضعة أمتار، في الجناح الذي هيّئ من أجل رمضان، ثمة صبي صغير مسرور، يمسك علبة تمور محشوة بعجينة اللوز الوردية والحمراء.

لا يبالي المخزن بمخاوف كارهي الأجانب في المجتمع، فهو ينسجم مع التنوع الثقافي لزبائنه، ويتابع بدقة شديدة أعيادهم. ليست المسألة مسألة أخلاق هنا بتاتاً، إنه «عُرف

التسويق» فحسب. أنصار الليبراليين سنحت لهم الفرصة للتباهي بهذه الدالّة الحقيقية التي تدلّ على المساواة والاندماج للسوق.

لاحظت ظهور شكل جديد للحجاب، مزين باللآلئ، يخفي الشعر ويكشف العنق والرقبة. ذكّرني ببعض أغطية الرأس القديمة في بعض المقاطعات الفرنسية والتي كنا نرى صوراً لها في الكتب المدرسية.

أهيم على وجهي في قسم غير مخصص للأغذية، بين ملابس السباحة والملابس الداخلية. رفعت بصري نحو السقف لأول مرة. ولكن من يفعل هذا في المخزن الكبير؟ تحت مصابيح النيون التي ترسل نوراً مبهراً فوق حيّز البضائع، أرى شيئاً يشبه الصندوق تتشابك فيه الأنابيب وأسلاك بين عوارض السقف، مع أشياء معدنية لم أستطع تحديد كنهها. كتلة غير مضاءة، تتناقض مع بريق المخزن عموماً. في تلك اللحظة، ورد في خاطري أن سلوكي قد يبدو مشبوهاً، بدوت كأنني أحاول الكشف عن أماكن الكاميرات. **نذكّركم أن هذا القسم تحت مراقبة الكاميرات.** قرأت هذا وأنا أعبر من أمام قسم الجوارب.

غرف القياس التي كانت حتى عهد قريب منعزلة هادئة تشرف عليها موظفة، اختفت اليوم. حلّ محلها ثلاث غرف

كئيبة متناهية في الصغر، تستقر داخل دعائم الجدار، تفصلها عن ممر الزبائن ستارة فقط. لم يعد هناك بائعة. ثمة تحذير مكانها: **نُعلم الزبائن الأعزاء أن الغرف مخصصة لقياس الملابس فقط (بحدود ثلاث قطع للشخص)**. كما هو واضح - أترجم لغة المخزن دائماً - يُمنع النوم والأكل وممارسة الحب داخل الكبائن. أرى الآن من خلال ستارة مفتوحة مراهقة تعبة تتحدث إلى أمها التي تقف قبالتها.

هنا، ذات مساء من صيف آخر، كنت عالقة في رتل انتظار طويل جداً، يبدأ من رفوف البسكويت، بعيداً جداً عن الصندوق الذي صار غير مرئي. لم يكن الناس يتحدثون إلى بعضهم البعض، كانوا ينظرون أمامهم محاولين تقدير سرعة الرتل. كان الطقس حاراً جداً وخطر على بالي السؤال الذي أطرحه على نفسي مراراً وتكراراً، السؤال المهم الوحيد: لماذا لا نثور؟ لماذا لا ننتقم من الانتظار الذي يفرضه علينا المخزن الكبير، الذي يخفّض من نفقاته بتقليل عدد الموظفين، ونقرر جميعنا أن نغرف من علب البسكويت وألواح الشوكولا ونقدم لأنفسنا من الأطايب بالمجّان كي نتشاغل عن الانتظار الذي حكم علينا، ونحن محشورون مثل جرذان بين صفوف الطعام، لا بل أكثر طواعية منهم، لا نجرؤ على قضمها؟ كم واحداً واتته هذه الفكرة؟ لا أستطيع أن أعرف. لو أحببت أن أكون مثالاً، لن يحذوَ حذوي أحد،

هذا ما تحكيه قصة فيلم «المساء الكبير»(*). الجميع منهك، وعمّا قريب، سوف نكون في الخارج، أخيراً خرجنا من المصيدة، ننسى بسرعة، سعداء تقريباً. نحن مجتمع رغبة وليس مجتمع فعل.

حلم طفولتي، أنا طفلة الحرب، التي أُشبعت بحكايا النهب في عام ١٩٤٠، كان الدخول بحرية إلى المخازن الخالية وأخذ كل ما تشتهي نفسي: حلويات، ألعاب، لوازم مدرسية. سواء فعلنا ذلك أم لم نفعل، ربما يكون هذا هو الحلم الذي يطفو في المخازن الكبرى، حلم مكبوت يعتبر طفولياً ومذنباً. لم يعد هناك واجهة لحماية سمك سردين قصيدة بريفير «الاستيقاظ متأخراً»(**) الشهيرة. لا حاجة لها بعد الآن. معلبات، شرائح اللحم، سكاكر الفريز، كل ما يمكن أن يُلمس ويُمسك باليد ـ لكن دون أن نضعه في فمنا ـ ممنوع أكثر من هذه الحرية المراقبة باستمرار، مراقبة من خوفنا الداخلي.

(*) المساء الكبير: فيلم يتحدث عن شقيقين يعودان بعد مغامرة لإحداث انقلاب على ذويهما: تعبير «المساء الكبير» يشاركه الشيوعيون الماركسيون للإشارة إلى انقلاب السلطة نحو مجتمع ثوري جديد.

(**) «الاستيقاظ متأخراً»: تلميح إلى قصيدة جاك بريفير الشهيرة، تتحدث عن جائع يقف أمام واجهة تعرض أسماك السردين.

عند المخرج المخصص لغير المتبضّعين، نظرة الحارس على الأيدي والجيوب. وكأن الانصراف دون تسوّق شذوذ مشبوه. مذنب بحكم الواقع بعدم شراء شيء.

الأربعاء في ١٧ تموز (يوليو).

داخل المركز، المحلات مغلقة. الخلفية الموسيقية مسموعة أكثر مما هي عليه في عزّ النهار عندما يغلب عليها الدويّ. اختفت الحياة تماماً عند مداخل أوشان. أدركت أنني لم أره مغلقاً قط. لم أرَ البوابات الحديدية تنزل أو ترفع أمام صناديق الدفع. لا أحد يراها غير عناصر الأمن إذ إن أوشان أول مخزن يفتح وآخر من يغلق في المركز. مطعم ماكدونالد وفلانش والبولينغ لهم مداخلهم الخاصة في الخارج.

قادتني خطواتي مرة أخرى نحو الكتب. يضحكني أن أرى ديمومة لغةٍ تعود إلى قرن مضى في عناوين عاطفية: «عرسان الصيف»، «خطيب لمساء واحد»، «أحلام العروس»، «موعد مدبّر».

هناك فيض من كتب الطبخ. تصفّحت كتاب جانيت ماتيو. تعلمت منه في الماضي كيف أطعم الآخرين أطباقاً غير السباغيتي واللبن. تغيّر إلى حد كبير، أرى على الغلاف صورة امرأة فتية سمراء تلبس تي شيرت، تقف في مطبخها، تمسك في يدها اليمنى خفّاقة وبالأخرى كتاب جانيت ماتيو.

تقرأه مبتسمة ابتسامة من هو مستغرق في رواية مسلية. المرأة مع الطناجر دائماً وأبداً. ابتعدت وأنا في غاية الانزعاج. ربما لم آت هذا المساء إلى أوشان إلا كي أرى نفسي وأنا في الخامسة والعشرين.

أبديت ملاحظتي لأمين الصندوق الأسود أنه سريع بطريقة مدهشة. سرّ بها. هو ليس هنا من أجل الصيف كما ظننت. قال متعجباً: أعمل في أوشان منذ أربعة أعوام!

ـ آتي دائماً، لم يسبق لي أن رأيتك قط.

ـ هذا طبيعي، أعمل عادة في الأقسام، أفرغ الصناديق وأرتب السلع.

ـ ماذا تفضّل أن تكون على الصندوق أو بين الأقسام؟

قال إن العمل بين الأقسام صعب جداً، لديه ألم في الظهر، عليه أن ينحني طوال الوقت.

غابت الشمس. جلس بعض الناس في الخارج على طاولات ماكدونالد، مقابل موقف السيارات الذي تتبعثر فيه سيارات تنطلق بسرعة أكثر من النهار. سلكتُ المزلق الذي يصل الموقف من الأسفل مع ذاك الذي يصل إلى الأعلى. تبدو الكتلة الضخمة للمركز التجاري بنوافذها الزجاجية

العاكسة المطفأة كأنها مغطاة بطبقة سوداء من الميكا(*)
البرّاقة.

(*) الميكا: صخور متبلورة رقائقها جميلة وألوانها جذابة، تستخدم في أعمال الديكور.

الاثنين في ٣٠ أيلول (سبتمبر).

عند مدخل الطابق الأول لأوشان عشرات الأجهزة الصغيرة، كلها متماثلة، مرتبة داخل خانات، في صفوف متوازية فوق طاولة عرض، كأنها أجهزة هواتف ضخمة، أو أجهزة تحكّم عن بعد. لا هذا ولا ذاك. إنها ماسحات ضوئية ليسجل كل واحد بنفسه السلع التي يأخذها عن الرفوف. يظهر المبلغ تدريجياً. في النهاية، ندفع في أحد الصناديق السريعة الموجودة في الطابق الثاني دون أن يتوجّب علينا إخراج المشتريات من عربة التسوّق. يسمّى هذا الجهاز «الماسح الذاتي». ثمة ملصقة بيضاء صغيرة تحدد الشرط الأول لاستخدامه: حيازة بطاقة الوفاء لأوشان. بالنسبة للزبائن غير الدائمين «تابعوا طريقكم». أما بالنسبة إلى الآخرين فيلاحقهم خطاب يتباهى بالسهولة وكسب الوقت لكنه مليء بالتهديدات المبطنة: يحذّر مستخدم الماسح الذاتي على هذا الشكل: عليه إظهار بطاقته الشخصية وقت الدفع. ويمكن أن يخضع لمراقبة عشوائية أو لإعادة قراءة مشترياته.

تخيلت المشهد فوراً. يصل فجأة مراقب أو اثنان، يقولان

لك: «طاب نهارك. هل يمكنك أن تفرغ عربتك»، «لماذا؟»، «للتحقق من أنك دفعت فعلاً ثمن كل ما يوجد فيها».

أتساءل، وفقاً لأي إشارات خارجية وأي استدلالات كاميرات سوف تستند استجواباتهم. وفيما إذا كان مفرغو العربات سيقومون بذلك في أماكنهم أمام بقية الزبائن أو يأخذونهم؟ وإلى أين؟ سوف يغدو المرور على الصندوق أكثر خطورة من عبور الجمارك.

قرأت على صفحات الأنترنيت أن الجهاز الذي يستخدم للمسح الذاتي يدعى «مسدّس» وأن المستهلكين يعربون عن رضاهم بالنظام. سلاح يستبعد أمينات الصندوق ويسلمنا في الوقت ذاته لسلطة المتجر الخفية.

إجراء سياسي بسيط: رفض استخدامه. كي أتفادى أي إغواء ـ أعرف جيداً الإكراه المغرّر للمتاجر الكبرى وضعفي كمستهلكة ـ لذا مزّقت بطاقتي الخاصة بأوشان.

الثلاثاء في ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر).

توقفت عن كتابة يومياتي.

مثل كل مرة أتوقف فيها عن تدوين الحاضر، يراودني إحساس أنني أنسحب من حركة العالم، ليس بالعدول عن التحدّث عن زماني فقط إنما عن رؤيته أيضاً. لأن الرؤية بهدف الكتابة، هي الرؤية بطريقة مختلفة، هي تمييز الأشياء والأفراد والآليات وإضفاء قيمة وجودية لها.

على مرّ الشهور، قدّرت أكثر فأكثر قوّة الرقابة التي تمارسها المتاجر الكبرى بطريقة واقعية وخيالية، ومثيرة للرغبات في الأوقات التي تحددها، قوّتها أيضاً في سخاء الألوان لخلب الألباب ـ كما في الرمادية حيث الحسومات الكبرى ـ . دورها في تكييف الأفراد مع ضعف المداخيل، قوتها في المحافظة على الخنوع الاجتماعي. سواء وضعت كمية قليلة أو جبلاً من المشتريات فوق الشريط المتحرك، السلع هي تقريباً، وعلى الدوام الأقل سعراً. شعرت دوماً بالعجز والظلم وأنا أخرج من المتجر الكبير. لهذا السبب، لم أكفّ عن الاحساس بإغراء هذا المكان وبالحياة الجماعية الدقيقة والمحددة التي تجري فيه. يمكن لهذه الحياة أن

تختفي قريباً مع انتشار الأنظمة التجارية الفردانية، مثل الطلب عبر الأنترنيت، وخدمة التوصيل التي على ما يبدو تنتعش يوماً بعد يوم في الطبقات الوسطى والعليا. بعد وقت قصير، أطفال اليوم، وعندما يغدون كباراً، ربما سيذكرون بحزن التسوّق أيام السبت من متجر Hyper U، مثل أولئك الذين تجاوزوا الخمسين ويحتفظون في ذاكرتهم البقاليات ذات الروائح العتيقة التي كانوا يذهبون إليها لشراء الحليب وبيدهم الأبريق المعدنيّ.

توقفت عن كتابة يومياتي.

مثل كل مرة أتوقف فيها عن تدوين الحاضر، يراودني إحساس أنني أنسحب من حركة العالم، ليس بالعدول عن التحدّث عن زماني فقط إنما عن رؤيته أيضاً. لأن الرؤية بهدف الكتابة، هي الرؤية بطريقة مختلفة، هي تمييز الأشياء والأفراد والآليات وإضفاء قيمة وجودية لها.



